الباب الثالث والعشرون

عصر الفلاسفة

الفصل الأول

نشأة الفلسفة

١ — قدر الصينيين

لقد كانت دراسة بلاد الصين عملا من الأعمال المجيدة التى تمت فى عصر الاستنارة(*) وقد قال فيهم ديدرو : « أولئك قوم يفوقون كل من عداهم من الأسيويين فى قدم عهدهم ، وفى فنونهم ، وعقليتهم ، وحكمتهم وحسن سياستهم ، وفى تذوقهم للفلسفة ، بل إنهم فى رأى بعض المؤلفين ليضارعون فى هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوربية وأعظمها استنارة »(١) . وقال فلتير Voltaire : « لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغير يذكر فى القوانين ، أو العادات ، أو اللغة ، أو فى أزياء الأهلين ... وإن نظام هذه الإمبراطورية لهو فى الحق خير ما شهده العالم من نظم »(٢) . وهذا الإجلال الذى ينظر به علماء ذلك الوقت إلى بلاد الصين قد حققته دراستنا لتلك البلاد عن كثب ، والذين خبروا تلك البلاد وعرفوها حق المعرفة قد بلغ إعجابهم بها غايته . انظر إلى ما قاله الكونت كيسرلنج Count Keyserling فى خاتمة كتاب له يعد من أغزر الكتب علماً وأعظمها نفعاً وأبرعها تصويراً :

(*) يطلق الأوربيون هذا اللفظ (Enlightenment) على العصر الذى سادته النزعة الفلسفية الفرنسية فى القرن الثامن عشر أيام فلتير ومعاصريه . (المترجم)

لقد أخرجت الصين القديمة أكمل صورة من صور الإنسانية . وكانت فيها صورة مألوفة عادية . . . وأسست أعلى ثقافة عامة عرفت فى العالم كله . . . وإن عظمة الصين لتتملكنى وتؤثر فىّ كل يوم أكثر من الذى قبله ... وإن عظماء تلك البلاد لأرقى ثقافة من عظماء بلادنا ... وإن أولئك السادة(*) لهم طراز سام من البشر ... وسموهم هذا هو الذى يأخذ بلبى ... إن تحية الصينى المثقف لتبلغ حد الكمال ! ... وليس ثمة من يجادل فى تفوق الصين فى كل شأن من شئون الحياة ... ولعل الرجل الصينى أعمق رجال العالم على بكرة أبيهم»(٢)

والصينيون لا يهتمون كثيراً بإنكار هذه الأقوال ، وقد ظلوا حتى هذا القرن (ما عدا نفراً قليلا فى الوقت الحاضر) مجمعين على أن أهل أوربا وأمريكا برابرة همج(٤) . وكان من عادة الصينيين قبل سنة ١٨٦٠ أن يترجموا لفظ « أجنبى » فى وثائقهم الرسمية باللفظ المقابل لهمجى أو بربرى ، وكان لا بد للبرابرة أن يشترطوا على الصينيين فى معاهدة رسمية إصلاح هذه الترجمة(**) . والصينيون كمعظم شعوب الأرض «يرون أنهم أعظم الأمم مدنية وأرقهم طباعا »(٧) . ولعلهم محقون فى زعمهم هذا رغم ما فى بلادهم من فساد وفوضى من الناحية السياسية ، ورغم تأخرهم فى العلوم ، وكدحهم فى المصانع ، ومدنهم الكريهة الرائحة ، وحقولهم الملأى بالأقذار ، وفيضان أنهارهم ، وما ينتاب بلادهم من القحط ، ورغم جمودهم وقسوتهم وفقرهم وخرافاتهم ، وقلة عنايتهم بتربية أبنائهم ، وحروبهم

(*) يقصد كبار الحكام الصينيين الذين أبعدوا عن وظائفهم فى تشنج — داو .

(**) بعث العالم الصينى الذى عاون الدكتور جيلز Dr. Giles فى ترجمه بعض مختارات من كتاب « جواهر الأدب الصينى Gems of Chinese Literature قصيدة وداع مشهورة فيها هذان البيتان الجميلان .

لقد أثار الأدب من عهد بعيد عقول أمة الأمم ؛
واليوم امتد نفوذها ليهدى موظفاً بربريا

المدمرة ، ومذابحهم وهزائمهم المذلة . ذلك أن من وراء هذا المظهر المظلم الذى يبدو الآن لعين الغريب عن بلادهم مدنيةً من أقدم المدنيات القائمة فى العالم وأغناها : فمن ورائه تقاليد قديمة فى الشعر ، يرجع عهدها إلى عام ١٧٠٠ ق.م ، وسجل حافل بالفلسفة الواقعية المثالية العميقة غير المعجزة الدرك ، ومن ورائه براعة فى صناعة الخزف والنقش لا مثيل لها من نوعها ، وإتقان مع يسر لجميع الفنون الصغرى لا يضارعهم فيه إلا اليابانيون ، وأخلاق قويمة قوية لم نر لها نظيراً عند شعوب العالم فى أى وقت من الأوقات ، ونظام اجتماعى ضم عدداً من الخلائق أكثر مما ضمه أى نظام آخر عرف فى التاريخ كله ودام أحقاباً لم يدمها غيره من النظم ، ظل قائماً حتى قضت عليه الثورة ويكاد يكون هو المثل الأعلى للنظم الحكومية التى يدعو إليها الفلاسفة ؛ ومجتمع كان راقياً متمدناً حين كانت بلاد اليونان مسكن البرابرة ؛ شهد قيام بابل وأشور ؛ وبلاد الفرس واليهود ، وأثينة وروما والبندقية وأسبانيا ، ثم شهد سقوطها كلها ، وقد يبقى بعد أن تعود بلاد البلقان التى نسميها أوربا إلى ما كانت عليه من جهالة وهمجية . ترى أى سر عجيب أبقى هذا النظام الحكومى تلك القرون الطوال ، وحرك هذه اليد الفنية الصناع ، وأوحى إلى نفوس أولئك القوم ذينك العمق والاتزان ؟

٢ — الدولة الوسطى الزاهرة

وصف البلاد الجغرافى — الجنس الصينى — ما قبل التاريخ

إذا عددنا الروسيا بلاداً أسيوية — وقد كانت كذلك إلى أيام بطرس الأكبر وقد تعود أسيوية مرة أخرى — لم تكن أوربا إلا أنفاً مسنناً فى جسم آسية ، وامتداداً يشتغل بالصناعة من خلفه قارة زراعية كبيرة ، ومخالب أو نتوءات ممتدة من قارة جبارة مهولة . وتشرف الصين على تلك القارة المترامية الأطراف ، وهى لا تقل عن أوربا فى اتساع رقعتها وتعداد عامرها .

وقد كان يكتنفها فى معظم مراحل تاريخها أكبر المحيطات وأعلى الجبال ، وصحراء من أوسع صحارى العالم .

لذلك استمتعت بلاد الصين بعزلة كانت هى السبب فى حظها النسبى من السلامة والدوام ، والركود وعدم التغيير ، وهو حظ كبير إذا قيس إلى حظ غيرها من الأمم . ومن أجل هذا فإن الصينيين لم يسموا بلادهم — الصين ، بل سموها تيان — هوا — « تحت السماء » أو زهاى — « بين البحار الأربعة » — أو چونج — جوُو « الدولة الوسطى » أو چونج — هوا — جوو « الدولة الوسطى الزاهرة » أو الاسم الذى سماها به مرسوم الثورة چونج — هوا — مين — چوو — « مملكة الشعب الوسطى الزاهرة »[٨] . والحق أن الأزهار اليانعة كثيرة فيها ، كما أن فيها كل المناظر الطبيعية المختلفة التى يمكن أن تهبها إياها الشمس الساطعة ، والسحب السابحة ، وشعاب الجبال الوعرة ، والأنهار العظيمة ، والأغوار العميقة ، والشلالات الدافقة بين التلال العابسة . ويجرى فى قسمها الجنوبى الخصيب نهر يانج — دزه[*] الذى يبلغ طوله ثلاثة آلاف ميل ، وفى الشمال ينحدر الهوانج هو ، أو النهر الأصفر من سلاسل الجبال الغربية مخترقاً سهولا من اللويس ، ويحمل معه الغرين ليصبه الآن فى خليج بتشيلى ، وكان من قبل يصبه فى البحر الأصفر ، ولعله سيعود فى الغد فيصبه فى هذا البحر مرة أخرى . على ضفاف هذين النهرين وعلى ضفتى نهر الراى وغيره من المجارى الواسعة ، بدأت الحضارة الصينية تنتزع الأرض من الوحوش والآجام ، وتصد عنها الهمج المحيطين بها ، وتنظف الأرض من الحسك والعُلَّيق ، وتطهرها من الحشرات المهلكة والرواسب الأكالة القارضة كأملاح البوناسا وغيرها ؛ وتجفف المناقع ، وتقاوم الجفاف والفيضان ، وما يطرأ على مجارى الأنهار

(*) هو الذى يسمى عادة يچ — دسى ، ويبلغ اتساعه عند تنعهاى ثلاثة أميال كامله . (المترجم)

من تحوّل يعود على البلاد وسكانها بالخراب والهلاك ، وتجرى الماء فى صبر وحذر من أولئك الأعداء الأوداء فى آلاف القنوات ، ونقيم يوما بعد يوم خلال القرون الطوال أكواخاً وبيوتاً ومعابد ومدارس وقرًى ومدناً ودولاً . ألا ما أطول الآجال التى يكد الناس خلالها ليشيدوا صرح الحضارة التى يدمرونها فى سهولة وسرعة عجيبتين !

وليس فى الناس من يعرف من أين جاء الصينيون ، أو إلى أى جنس ينتسبون ، أو متى بدأت حضارتهم فى الزمن القديم . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن بقايا « إنسان پيكين »(*) توحى بأن القردة البشرية جد قديمة فى بلاد الصين . وقد استنتج أندروز Andrews من بحوثه فى تلك البلاد أن منغوليا كلن يعمرها من عشرين ألف سنة قبل الميلاد أجيال من الناس تشبه أدواتهم الأدوات « الأزيلية » التى كانت أوربا تستخدمها فى العصر الحجرى الأوسط ، وأن خلفاء هذه الأجيال انتشروا فى سيبيريا والصين حينما جفت منغوليا الجنوبية وأجدبت واستحالت إلى صحراء جوبى الحالية : وتدل كشوف أندرسن Anderson وغيره فى هونان ومنشوريا الجنوبية على أن ثقافة تنتسب إلى العصر الحجرى الحديث وجدت فى تلك البلاد متأخرة بألفى عام من مثيلتها فى عصر ماقبل التاريخ فى مصر وسومر . ويُشبه بعض ماوجد من الأدوات فى الرواسب الباقية من العصر الحجرى الحديث ، فى شكله وتسنينه ، المدى الحديدية التى يستخدمها سكان الصين الشمالية فى هذه الأيام لحصاد الذرة الصينية(**) ، وهذه الحقيقة على ضآلة شأنها ترجح القول بأن الثقافة الصينية قد دامت سبعة آلاف عام متواصلة غير منقطعة ، وهو عهد ما أطوله ، وقلّ أن يوجد له فى غير الصين نظير(١٥) .

(*) النطق الصحيح لهذا الإسم هو بيچنج وقد نستعمله أحياناً . (المترجم)

(**) المعروفة بالسرغو

على أن طول هذه العهود يجب ألا يغشى أبصارنا فنبالغ فى تجانس هذه الثقافة أو تجانس الشعب الصينى نفسه : فقد يلوح أن بعض فنونهم وصناعاتهم الأولى جاءتهم من بلاد النهرين والتركستان . من ذلك أن حزف هونان المنتمى إلى العصر الحجرى الحديث لا يكاد يفترق فى شىء عن خزف أنو والسوس[١١] . والجنس « المغولى » الحاضر مزيج معقد اختلطت فيه السلالة البدائية مراراً وتكراراً بمئات السلالات الغازية أو المهاجرة من منغوليا وجنوبى الروسيا (السكوذيون ؟) ووسط آسية[١٢] .

فالصين من هذه الناحية كالهند يجب أن نشبهها بأوروبا بأكملها لا بأمة واحدة من أممها ؛ فليست هى موطناً موحداً لأمة واحدة ، بل هى خليط من أجناس مختلفة الأصول متباينة اللغات غير متجانسة فى الأخلاق والفنون ؛ وكثيراً ما يعادى بعضها بعضاً فى العادات والمبادئ الخلقية والنظم الحكومية .

٣ — القرون العابرة المجهولة

قصة الخلق عند الصينيين — بداية الثقافة — الخمر
وعصر الأكل — الأباطرة الأفاضل — ملك كافر

تسمى الصين « جنة المؤرخين » ؛ ذلك أنها ظلت مئات وآلافاً من السنين ذات مؤرخين رسميين يسجلون كل ما يقع فيها ، وكثيراً مما لا يقع : على أننا لا نثق بأقوالهم عن العهود السابقة لعام ٧٧٦ ق . م ، ولكننا إذا ما استمعنا إلى هذه الأقوال رأيناهم يحدثوننا أحاديث مفصلة عن تاريخ الصين منذ عام ٣٠٠٠ ق. م ، ورأينا أكثرهم تقى وصلاحاً يصفون خلق العالم كما يفعل المطلعون على الغيب فى هذه الأيام . ومن أقوالهم فى هذا أن « پان كو » أول الخلائق استطاع أن يشكل الأرض حوالى عام ٢٢٩٫٠٠٠ ق . م بعد أن ظل يكدح فى عمله هذا ثمانية عشر ألف عام . وتجمعت أنفاسه التى كان يخرجها فى أثناء عمله فكانت رياحاً

وسحاب ، وأضحى صوته رعداً ، وصارت عروقه أنهاراً ، واستحال لحمه أرضاً ، وشعره نبتاً وشجراً ، وعظمه معادن ، وعرقه مطراً ؛ أما الحشرات التي كانت تعلق بجسمه فأصبحت آدميين[١٣] . وليس لدينا من الأدلة القاطعة ما ننقض به هذا العلم الكوني العجيب .

وتقول الأساطير الصينية إن للملوك الأولين حكم كل منهم ثمانية عشر ألف عام ، وإنهم جاهدوا أشق جهاد ليجعلوا من قمل « پان كو » خلائق متحضرين . وتقول لنا هذه الأساطير إن الناس « كانوا قبل هؤلاء الملوك السماويين كالوحوش الضارية يلبسون الجلود ويقتاتون باللحوم النيئة ، ويعرفون أمهاتهم ، ولكنهم لا يعرفون اباءهم » — ولا يرى استرندبرج Strindberg أن هذا الوصف الأخير مقصور على الأقدمين أو على الصينيين . ثم جاء من بعد هؤلاء الإمبراطور فوشي في عام ٢٨٥٢ ق . م بالتحديد ، فعلّم الناس بمعاونة زوجه المستنيرة الزواج ، والموسيقى والكتابة والتصوير ، وصيد السمك بالشِباك ، وتأنيس الحيوان ، وإطعام دود القز للحصول منه على الحرير . وأوصى وهو على فراش الموت أن يخلفه سن نونج ، فأدخل هذا الإمبراطور في البلاد الزراعة ، واحتراع المحراث الخشبي ، وأقام الأسواق وأوجد التجارة ، وأنشأ علم الطب بما عرفه من خواص النبات العلاجية ، هذا ما تقوله الأساطير التي تعلى الأشخاص أكثر مما تعلى الأفكار ، وتعزو إلى عدد قليل من الأفراد نتائج كدح الأجيال الطوال . ثم حكم إمبراطور محارب قوي يدعى هوانج — دي لم يطل عهده أكثر من مائة عام ؛ فجاء إلى الصين بالمغنطيس والعجلات ، ووظف المؤرخين الرسميين ، وشاد أول أبنية من الآجر في الصين ، وأقام مرصداً لدراسة النجوم ، وأصلح التقويم ، وأعاد توزيع الأرض على الأهلين . وحكم يَو قرناً آخر ، وبلغ من صلاح حكمه أن كنفوشيوس ، حين كتب عنه بعد زمانه بثمانمائة وألف عام في عهد كان يبدو له بلا ريب عهداً « حديثاً » فاسداً ، أخذ يندب ما طرأ على الصين من ضعف

وانحلال . ويحدثنا الحكيم القديم — الذى لم يستطع رغم حكمته التورع عن « الكذبة الصالحة » يضيفها إلى القصة ليجعل لها مغزى خلقيا — يحدثنا هذا الحكيم القديم أن الناس أصبحوا أفاضل أتقياء بمجرد النظر إلى يَوْ ، وكان أول ما قدمه يَوْ من معونة للمصلحين أن وضع فى خارج باب قصره طبلاً يضربونه إذا أرادوا أن يدعوه لسماع شكواهم ، ولوحاً يكتبون عليه ما يشيرون به على الحكومة ، ويقول كتاب التاريخ الذائع الصيت :

« أما يَوْ الصالح فيقولون عنه إنه حكم چونج — جُوُ ومائة عام لأنه عاش مائة عام وعشرة وستة ؛ وكان رحيما خيِّرا كالسماء ، حكيما بصيراً كالآلهة ، وكان ضياؤه يبدو من بعيد كالسحابة اللامعة ، فإذا اقتربت منه كان كأنه الشمس الساطعة . وكان غنياً فى غير زهو ، عظيما فى غير ترف ، وكان يلبس قلنسوة صفراء ، ومئزراً قاتم اللون ، ويركب عربة حمراء تجرها جياد بيض . وكانت طنف أسقف بيته غير مشذبة ، وألواحه غير مسحجة ، ودعائمه الخشبية غير ذات أطراف مزينة .

وكان أغلب ما يقتات به الحساء أيا كان ما يصنع منه ، لا يهتم باختيار الحبوب التى يصنع منها خبزه ، وكان يشرب حساء العدس من صفحة مصنوعة من الطين ، ويتناوله بملعقة من الخشب . ولم يكن يتحلى بالجواهر ، ولم تكن ثيابه مطرزة ، بل كانت بسيطة لا يختلف بعضها عن بعض . ولم يكن يعنى بغير المألوف من الأشياء أو الغريب من الأحداث ، ولم يكن يقيم وزناً للأشياء النادرة الغريبة ، يستمع لأغانى الغزَل ، عربته الرسمية خالية من أسباب الزينة ... يلبس فى الصيف رداء بسيطاً من القطن ، ويلف جسمه فى الشتاء بجلود الظباء . ومع هذا كله فقد كان أغنى مَن حكم چونج — جُوُ ، طوال عهدها كله ، وأرجحهم عقلا ، وأطولهم عمراً ، وأحبهم إلى قلوب الشعب[١٤] .

وكان شون آخر هؤلاء « الملوك الخمسة » مثالا فى البر البنوى ، كما كان هو البطل الذى جاهد لحماية البلاد من فيضانات نهر هوانج — هو ، والذى أصلح التقويم ، وضبط الموازين والمقاييس ، وكسب محبة الأجيال التى جاءت بعده من تلاميذ المدارس بتقصير طول السوط الذى كانوا يربون به . وتقول الروايات الصينية إن شون فى آخر أيامه رفع معه على العرش أقدر مساعديه ، وهو المهندس العظيم يو ، الذى تغلب على فيضان تسعة أنهار بشق تسعة جبال واحتفار تسع بحيرات ، ويقول الصينيون « لولا يو ، لكنا كلنا سمكا »[١٥] . وتقص الأساطير المقدسة أن خمر الأرز عصر فى أيامه وقدم للإمبراطور ، ولكن يو صبّه على الأرض وقال متنبئاً : « سيأتى اليوم الذى يخسر فيه أحد الناس بسبب هذا الشىء ملكا » ، ثم نفى من كشف هذا الشراب من البلاد وحرم على الناس شربه . فلما فعل هذا جعل الناس خمر الأرز شرابهم القومى ، فكان ذلك درساً علموه من جاء بعدهم من الخلائق .

وغيّر يو المبدأ الذى كان متبعاً من قبله فى وراثة الملك وهو أن يعين الإمبراطور قبل وفاته من يخلفه على العرش ، فجعل الملك وراثياً فى أسرته ، وأنشأ بذلك أسرة الشّيتية (أى المتحضرة) ، فكان ذلك سبباً فى أن يتعاقب على حكم الصين العباقرة والبلهاء وذوو المواهب الوسطى . وقضى على هذه الأسرة إمبراطور ذو أطوار شاذة ، يدعى جية أراد أن يسلّى نفسه هو وزوجته فأمر ثلاثة آلاف من الصينيين أن يموتو ميتة هنيئة بالقفز فى بحيرة من النبيذ .

وليس لدينا ما يحقق لنا صدق ما ينقله إلينا المؤرخون الصينيون الأقدمون من أخبار هذه الأسرة . وكل ما نستطيع أن نقوله أن علماء الفلك فى هذه الأيام قد حققوا تاريخ الكسوف الشمسى الذى ورد ذكره فى السجلات القديمة فقالو إنه قد حدث فى عام ٢١٦٥ ق . م ، ولكن الثقاة الذين يعتد بآرائهم لا يؤمنون بحساب أولئك الفلكيين[١٦] . وقد وجدت على بعض العظام التى كشفت فى

هونان أسماء حكام تعزوهم الروايات الصينية إلى الأسرة الثانية أو أسرة شانج ؛ ويحاول المؤرخون أن يعزوا بعض الأوانى البرنزية الموغلة فى القدم إلى أيام تلك الأسرة . أما فيما عدا هذا فمرجعنا الوحيد هو القصص الذى يحوى من الطرافة واللذة أكثر مما يحوى من الحقيقة . وتقول الروايات القديمة إن وو — يى أحد أباطرة أسرة شانج كان كافراً يتحدى الآلهة ويسب روح السماء ، ويلعب الشطرنج مع ذلك الروح ، ويأمر أحد أفراد حاشيته أن يحرك القطع بدل الروح ، فإذا أخطأ سخر منه . ثم أهدى إليه كيسا من الجلد وملأه دما ، وأخذ يسلى نفسه بأن يصوب إليه سهامه . ويؤكد لنا المؤرخون — وفيهم من الفضيلة أكثر مما فى التاريخ نفسه — إن وو — يى أصابته صاعقة فأهلكته .

وكان چوسين آخر ملوك هذه الأسرة ومخترع عصى الطعام حبيثاً آثماً إلى حد لا يكاد يصدقه العقل ، فقضى بإثمه على أسرته . ويحكى عنه أنه قال : « لقد سمعت أن لقلب الإنسان سبع فتحات ، وأحب أن أتثبت من صدق هذا القول فى بى كان » — وزيره . وكانت تا كى زوجة چو مضرب المثل فى الفجور والقسوة ، فكانت تعقد فى بلاطها حفلات الرقص الخليع ، وكان الرجال والنساء يسرحون ويمرحون عارين فى حدائقها . فلما غضب الناس من هذه الفعال عمدت إلى كم أفواههم باختراع ضروب جديدة من التعذيب ، فكانت ترغم المذمرين على أن يمسكوا بأيديهم معادن محمية فى النار أو يمشوا على قضبان مطلية بالشحم ممتدة فوق حفرة مملوءة بالفحم المشتعل ، فإذا سقط الضحايا فى الحفرة طربت الملكة حين تراهم تشوى أجسادهم فى النار[١٧] .

وقضت على عهد چوسين مؤامرة دبرها الثوار فى داخل البلاد ، وغارة من ولاية چو الغربية ، ورفع المغيرون على العرش أسرة چو ، ودام حكمها أطول من حكم أية أسرة مالكة أخرى فى بلاد الصين . وكافأ الزعماء المنتصرون من أعانوهم من القواد والكبراء بأن جعلوهم حكاما يكادون يكونون مستقلين فى

الولايات الكثيرة التى قسمت إليها الدولة الجديدة . وعلى هذا النحو بدأ عهد الإقطاع الذى كان فيما بعد شديد الخطر على حكومة البلاد ، والذى كان رغم هذا باعثاً على النشاط الأدبى والفلسفى فى بلاد الصين . وتزاوج القادمون الجدد والسكان الأولون وامتزجوا جميعاً ، وكان امتزاجهم هذا تمهيداً بيولوجيا لأولى حضارات الشرق الأقصى فى الأزمنة التاريخية .

٤ — الحضارة الصينية الاولى

عصر الاقطاع فى الصين — وزير قدير — المصال بين العادات والقوانين — الثقافة والفوضى — أغانى الحب فى «كتاب الأغانى»

لم تكن الولايات الإقطاعية ، التى وهبت الصين بعدئذ ما استمتعت به من نظام سياسى قرابة ألف عام ، من عمل الفاتحين ، بل نشأت من المجتمعات الزراعية التى قامت فى الأيام البدائية بامتصاص أقوياء الزراع ضعافهم ، أو باندماج الجماعات تحت رياسة زعيم واحد حتى يستطيعوا أن يدفعوا عن حقولهم من يغيرون عليها من الهمج المحيطين بهم . وبلغ عدد هذه الإمارات فى وقت من الأوقات سبع عشرة ولاية تتكوّن كل منها فى العادة من بلدة مسورة تحيط بها أرض زراعية ، ومن ضواح مسورة أصغر منها يتألف من مجموعها محيط دفاعى واحد[١٨] . ثم أخذت هذه الولايات يندمج بعضها فى بعض على مهل حتى نقص عددها إلى خمس وخمسين ولاية تشمل الإقليم الذى يعرف الآن بإقليم هونان وما جاوره من أقاليم شانسى ، وشَنْسى ، وشانتونج . وكان أهم هذه الولايات الخمس والخمسين ولاية تشى التى وضعت أساس الحكومة الصينية ، وولاية تشين التى أخضعت سائر الولايات لحكمها . وأنشأت منها إمبراطورية موحدة ، وخلعت على بلاد الصين اسمها المعروفة به فى جميع بلاد العالم إلا فيها هى نفسها .

وكان السياسى العبقرى الذى وضع لولاية تشى نظامها هو جوان چونج

مستشار الدوق هوان . وقد بدأ جوان حياته السياسية بمساعدة أخى هوان عليه فى نزاعهما من أجل السيطرة على تشى ، وكاد يقتل هوان فى إحدى الوقائع الحربية . ولكن هوان انتصر فى آخر الأمر وأسر جوان وعيّنه رئيس وزراء دولته . وزاد جوان من قوة سيده باستبدال الأسلحة والأدوات الحديدية بنظائرها المصنوعة من البرنز ، واحتكار الحكومة للحديد والملح ، أو بالسيطرة عليهما ، ثم فرض الضرائب على النقود والسمك والملح « لكى يساعد الفقراء ويكافئ الحكماء وذوى المواهب »[١٩] . وأصبحت تشى فى أيام وزارته الطويلة الأجل دولة حسنة النظام ذات عملة مستقرة ، ونظام إدارى محكم ، وثقافة زاهرة . وقد قال عنه كنفوشيوس — وهو الذى لم يكن يمتدح الساسة إلا بأوجز عبارة — « إن الناس لايزالون حتى اليوم يستمتعون بالنعم التى أسبغها عليهم ، ولولا جوان چونج لظللنا حتى اليوم ذوى شعر أشعث ، ولظلت ملابسنا تزرر جهة الشمال[*][٢٠]

وفى بلاط نبلاء الإقطاع نشأت طريقة التحية التى امتاز بها الصينيون المهذبون ، كما نشأت فيها شيئاً فشيئاً تقاليد من الأخلاق والاحتفالات ومراسم التكريم بلغت من الدقة حداً يكفيها لأن تحل محل الدين عند الطبقات العليا فى المجتمع . ثم وضعت أسس الشرائع وبدأ نزاع شديد بين حكم العادات التى نمت عند عامة الشعب وبين حكم القانون الذى وضعته الدولة . وأصدرت دوقيتا چنج وتشين (فى عامى ٥٣٥ ، ٥١٢ ق . م) كتباً فى القانون ملأت قلوب الفلاحين رعباً ، وتنبئوا بما سيحل بهما من عقاب سماوى شديد على هذه الجريمة الشنيعة . وحدث بالفعل أن دمرت النار عاصمة چنج بعد ذلك بقليل . وكان فى هذه الشرائع محاباة للطبقات العليا ، فقد أعفتها من كثير من الواجبات المفروضة على غيرها من الطبقات على شريطة أن يؤدب أفرادها أنفسهم . من ذلك أن القاتل منهم كان

(*) هذه هى الطريقة التى يريد بها كنفوشيوس أن يقول إنه لولا جوان لظل الصينيون همجاً ، فقد كان من عادات الهمج فى تلك الأيام أن يزرروا ملابسهم جهة الشمال[٢١] .

يسمح له بأن ينتحر ، وكان الكثيرون منهم ينتحرون بالفعل على النحو الذى أصبح فيما بعد عادة مألوفة بين طبقة السمورای فى اليابان . واحتج عامة الشعب على هذه التفرقة ، وقالوا إن فى مقدورهم هم أيضاً أن يؤدبوا أنفسهم ، وتمنوا أن يقوم بينهم وطنى مخلص شبيه بهرموديوس أو أرستجيتون(*) يحررهم من ظلم القوانين . ثم تراضت الفئتان آخر الأمر واتفقتا على حل سليم فضيقت دائرة القانون الوضعى حتى لم تعد تشمل إلا المسائل الكبرى أو المسائل القومية ، وظلت أحكام العرف والعادة هى الفيصل فيما دونها من الأمور . وإذ كانت الكثرة الغالبة من شئون البشر من المسائل الصغرى فقد ظل حكم العادة هو السائد بين كافة الطبقات .

واستمر تنظيم الولايات يجرى فى مجراه ، وجمعت قواعد هذا النظام فى الچو — لى ، أو « دستور چو » وهو مجموعة من الشرائع تعزوها الروايات إلى چو جونج عم دوق چو الثانى وكبير وزرائه ، وهو بالطبع قول لا يقبله عقل لأن هذه الشرائع لا يمكن أن تكون من وضع رجل واحد .

والواقع أن الإنسان يلمح فيها روح كنفوشيوس ومنشيس ، ولهذا فأكبر الظن أنها وضعت فى آخر أيام أسرة چو لا فى أيامها الأولى . وقد ظلت مدى ألفى عام تمثل فكرة الصينيين عن النظام الحكومى : وقوامه إمبراطور يحكم نيابة عن الخالق ، وأنه « ابن السماء » يستمد سلطانه مما يتصف به من الفضيلة والصلاح ؛ وأعيان ، بعضهم بحكم مولدهم وبعضهم بحكم تربيتهم وتدريبهم ، يصرفون أعمال الدولة ؛ وشعب يرى أن واجبه فلح الأرض ، يعيش فى أسر أبوية ، ويتمتع بالحقوق المدنية ولكنه لا رأى له فى تصريف الشئون العامة ؛ ومجلس من ستة وزراء كل واحد منهم على ناحية من النواحى الآتية وهى : حياة الإمبراطور وأعماله ، ورفاهية الشعب وزواج أفراده المبكر ، والمراسيم والتنبؤات الدينية ، والاستعداد للحرب والسير فيها ، وتوزيع العدالة بين السكان وتنظيم

(*) Harmodius و Aristogiton وطنيان أثينيان عاشا حوالى ٥٢٥ ق . م . (المترجم)

الأشغال العامة » . ويكاد هذا القانون يكون قانوناً مثالياً ، وأكبر الظن أنه نبت فى عقل فيلسوف أفلاطونى مجهول لم يتحمل أعباء الحكم ، لا من تجارب زعماء دنستهم السلطة الفعلية ويتعاملون مع خلائق حقيقيين .

ولما كان الشر المستطير قد يجد له مكاناً حتى فى أكمل الدساتير ، فقد كان تاريخ الصين السياسى هو التاريخ المألوف الذى يتناوبه الفساد الطويل وفترات الإصلاح القصيرة . ذلك أن الثروة حين زادت أدت إلى الإسراف والترف فأفسدا الطبقة العليا ، كما غصّ بلاط الأباطرة وغصت فيما بعد لوياتج عاصمة الدولة بالموسيقيين والقتلة السفاحين والسرارى والفلاسفة . وقلما كانت تمضى عشر سنين دون أن يهاجم فيها الدولة الجديدة البرابرةُ الجياع الذين لم ينقطعوا يوما ما عن الضغط على حدودها[٢٣] ، حتى أضحت الحرب أولا ضرورة لا بد منها للدفاع ، ثم صارت بعد قليل حرب هجوم واعتداء ، وتدرجت من ألعاب يتسلى بها الأعيان إلى مسابقات فى التقتيل بين عامة الشعب ، يطاح فيها بعشرات الآلاف من الرؤوس ، فلم يمض إلا قرنان من الزمان أو أكثر منهما بقليل حتى قتل من الملوك ستة وثلاثون[٢٤] ، وعمت البلاد الفوضى ، ويئس الحكماء من إصلاح الأمور .

وظلت الحياة تتعثر فى طريقها متخطية هذه العقبات القديمة . فكان الفلاّح يزرع ويحصد لنفسه فى أحيان قليلة وللنبلاء الإقطاعيين فى أكثر الأحيان ، لأنه هو وأرضه كانا ملكا لهؤلاء النبلاء ، ولم يبدأ الفلاحون فى امتلاك الأرض إلا فى أواخر أيام هذه الأسرة . وكانت الدولة — وهى مجتمع مهلهل من النبلاء الإقطاعيين يعترفون بعض الاعتراف بسيادة واحد منهم — تجند العمال للأشغال العامة ، وتروى الحقول من قنوات كثيرة منبثة فى أنحاء البلاد ؛ وكان الموظفون العموميون يعلّمون الأهلين زرع الحقول وغرس الأشجار ، ويشرفون على صناعة الحرير بكافة أجزائها . وكان صيد السمك واستخراج الملح من باطن الأرض احتكاراً للحكومة فى كثير من الولايات[٢٥] . وكانت التجارة الداخلية

رائجة فى المدن فنشأت من رواجها طبقة وسطى صغيرة العدد تستمتع بنعم لا تكاد تفترق عن نعم الحياة الحديثة ، وكان أفرادها ينتعلون أحذية من الجلد ، ويرتدون ملابس من الحرير ، أو من نسيج آخر يغزلونه بأيديهم ، وينتقلون فى عربات مختلفه الأنواع ، أو فى قوارب تسير فى الأنهار ، ويسكنون بيوتاً حسنة البناء ، ويستخدمون الكراسى والنضد ، ويتناولون طعامهم فى صحاف وأوانى من الخزف المنقوش[٣٦] . وأكبر الظن أن مستوى حياتهم كان أرقى من مستوى حياة معاصريهم فى بلاد اليونان أيام صولون Solon أو فى روما أيام نوما Numa .

وسرت فى الحياة الذهنية فى الصين بين ظروف التفكك ومظاهر الفوضى السائدة فى البلاد حيوية تنقض ما يضعه المؤرخون من نظريات وقواعد عامة يريدون أن يأخذ بها الناس ؛ فقد وضعت فى هذا العهد المضطرب قواعد اللغة الصينية والأدب والفلسفة والفن . ونشأ من ائتلاف الحياة التى أصبحت آمنة بفضل التنظيم الاقتصادى والادخار مع الثقافة التى لم تكن قد وجدت بعد أو قيدت بالقيود والأحكام التى تفرضها عليها التقاليد والحكومة الإمبراطورية القوية السلطان ، نشأ من ائتلافهما ذلك الإطار الاجتماعى الذى احتوى أكثر العهود إبداعاً وإنشاء فى تاريخ الصين الذهنى . فكان فى كل قصر من قصور الأباطرة والأمراء وفى آلاف من المدن والقرى شعراء ينشدون القصائد ، وصناع يديرون عجلة الفخار أو يصبون الآنية الفخمة الجميلة ، وكتبة ينمقون على مهل حروف الكتابة الصينية وسوفسطائيون يعلّمون الطلبة المجدين أساليب الجدل والمحاجة الذهنية ، وفلاسفة يتحسرون ويأسون لنقائص البشر وتدهور الدول .

وسندرس فى الفصول التالية حال الفن واللغة فى أكمل تطوراتهما وأخص خصائصهما ، ولكن الشعر والفلسفة من نتاج هذا العصر الذى نتحدث عنه بنوع خاص ، وهما يجعلانه أكثر عصور الفكر الصينى ازدهاراً . وقد ضاع معظم ما كتب من الشعر قبل كنفوشيوس ، وأكثر ما بقى منه هو ما اختاره هذا

الفيلسوف من نماذج كلها جد وصرامة ، جمعت فى الشى — چنج ، أى « كتاب الأغانى » وقيلت فى فترة تزيد على ألف عام تمتد من أيام الشعر القديم الذى قيل فى أيام أسرة شانج إلى الشعر ذى الصيغة الحديثة الذى قيل فى زمن معاصر لفيثاغورس . وتبلغ عدة هذه القصائد الباقية خمس قصائد وثلثمائة قصيدة ، وكلها موجزة إيجازاً يجعلها مستعصية على الترجمة ، ذات تصوير إيحائى ، تتحدث عن الدين ومتاعب الحرب وهموم الحب .

وإلى القارئ أمثلة من نواح الجنود الذين انتزعوا من بيوتهم فى غير الأوقات المناسبة ؛ ليلقى بهم فى مخالب المنايا لغير سبب تدركه عقولهم :

ألا ما أعظم حرية الإوز البرى وهو يطير فى الفضاء
ثم يتمتع بالراحة فوق أغصان شجر اليو الملتف الكثيف !
أما نحن الدائمو الكدح فى خدمة الملك ،
فإنا لا نجد من الوقت ما نزرع فيه الذرة والأرز
ترى على أى شىء يعتمد آباؤنا ؟
حدثينى أيتها السماء النائية الزرقاء !
متى ينتهى هذا كله ؟ ..
وهل فى الأشجار أوراق لم تصبح بعد أرجوانية ؟
وهل بقى فى البلاد رجل لم ينتزع من بين ذراعى زوجته ؟
رحمة بنا نحن الجنود : —
ألسنا نحن أيضاً آدميين ؟[٢٧]

وفى القصائد كثير من أغانى الحب المختلفة النغم التى تضرب على أوتار القلوب ، وإن كان ذلك العصر يبدو لنا لفرط جهلنا عصر الهمجية الصينية وبداية تاريخها . ونحن نستمع فى إحدى هذه القصائد إلى صوت الشباب المتمرد إلى أبد الدهر

يهمس فى آذاننا من خلال القرون البائدة ، التى كانت تبدو عهوداً نموذجية لـكنفوشيوس ، وكأنما هى تقول أن لا شىء يماثل التمرد والعصيان فى قدم العهد :

أتوسل إليك يا حبيبى
أن تغادر قريتى الصغيرة
وألا تهشم أغصان صفصاف ؛
وليس ذلك لأن تهشيمها يحزننى
بل لأنى أخشى أن يثير تهشيمها غضب أبى .
والحب ينادينى بعواطفه المقهورة : —
« إن أوامر الأب يجب أن تطاع »
أتوسل إليك يا حبيبى
ألا تتسلق جدار بيتى
أو تحطم أغصان توتى
وليس ذلك لأنى أخشى سقوطها
بل لأنى أخشى أن يثير سقوطها غضب أخى .
والحب ينادينى بعواطفه المقهورة :—
« إن كلام الأخ يجب أن يطاع »
أتوسل إليك ياحبيبى ،
ألا تتسلل إلى الحديقة
ولا تحطم أشجار الصندل ؛
وليس هذا لأنى أعنى بهذه أو تلك
بل لأنى أرهب حديث المدينة ،
وإذا ما سار المحبون على هواهم

فماذا يقول عنهم جيرانهم ؟[٢٨]

وثمة قصيدة أخرى هى أقرب هذه القصائد إلى الكمال ، أو أحسنها ترجمة ، وهى تدل على أن العواطف البشرية قديمة موغلة فى القدم :

جلال الصباح يعلو فوق هامتى
وتحيط بى الأزهار الشاحبة بيضاء وأرجوانية وزرقاء وحمراء ، أنا قلقة البال

وتحرك شىء بين الحشائش الذابلة
فظننت أن ما سمعته هو وقع أقدامه ،
وإذا جندب يصر ،

وتسلقت التل ساعة أن بزغ الهلال
فأبصرته مقبلا من الطريق الجنوبى
فاستراح واطرح عنه حمله[٢٩]

٥ — الفلسفة قبل كنفوشيوس

« كتاب التغيرات » — « اليانج واين » — عصر الاستنارة الصينيه
نتج شى سقراط الصين

يمتاز هذا العصر بفلسفته . وليس يعيب الجنس البشرى أن تشوفه كان فى كل عصر من العصور يسبق حكمته ، وأن مثله العليا كانت تخطو بأسرع من خطى مسلكه . وها هو ذا يو — دْزَه فى عام ١٢٥٠ ق . م ينطق بتلك العبارة القصيرة التى تعد من جوامع الكلم ، والتى طالما رددها الناس من قبله ، ولكنها لم تبل جدتها بعد ؛ إذ لا يزال الناس فى حاجة إلى من يذكرهم بأن كل مجد مآله كرب وشقاء :

« من يطرح المجد ولا يعبأ به ينج من الأحزان »[٣٠]

ألا ما أسعد الإنسان الذى لا تاريخ له ! وقد ظلت بلاد الصين من ذلك العهد القديم إلى يومنا هذا تخرج فلاسفة .

فكما أن الهند أرقى بلاد العالم فى الأديان ، وعلم ما وراء الطبيعة ، فكذلك الصين أرقاها فى الفلسفة الإنسانية غير الدينية ، إذ لا يكاد يوجد فى الأدب الصينى كله كتاب ذو شأن فى علم ما وراء الطبيعة غير تلك الوثيقة العجيبة التى يبدأ بها تاريخ التفكير الصينى المدون ، وهى الوثيقة المعروفة باسم إى — چنج ، أو « كتاب التغيرات » . وتقول الرواية المأثورة إن هذا الكتاب قد كتبه ون وانج ، أحد مؤسسى أسرة چو فى سجنه ، وإن أبسط مبادئه مستمدة من فوشى الذى عاش قبله بزمن طويل . وهم يقولون لنا إن هذا الإمبراطور الأسطورى اخترع « الجوات » الثمانى أو التثاليث الرمزية التى ترى علوم ما وراء الطبيعة عند الصينيين أنها تنطبق على قوانين الطبيعة وعناصرها . وهم يقولون إن كل واحد من هذه التثاليث يتألف من ثلاثة خطوط بعضها متصل ويمثل عنصر الذكورة أو اليانج وبعضها منقطع ويمثل عنصر الأنوثة أو اين

وكذلك يمثل اليانج فى هذه الثنائية الرمزية العنصر الإيجابى الفعّال ، المنتج ، السماوى عنصر الضوء والحرارة والحياة ؛ على حين أن اين يمثل العنصر السلبى المنفعل ، الأرضى ، عنصر الظلمة والبرودة والموت . وقد حلّل ون بانج ذكره ، وأتعب عقول آلاف الملايين من الصينيين بمضاعفة عدد الشرط فى الخطوط المتصلة والمتقطعة ، فرفع بذلك عدد تباديلها وتوافيقها إلى أربعة وستين كل منها يقابل قانوناً من قوانين الطبيعة ، ويحتوى على جميع العلوم والتاريخ . والحكمة جميعاً تكمن فى هذه الأربع والستين شَيْپَنْجَة — أو الآراء الممثلة تمثيلا رمزيا فى التثليثات السالفة الذكر . والحقائق كلها يمكن ردها إلى تعارض واتحاد العاملين الأساسيين فى الكون وهما عنصرا الذكورة والأنوثة أى اليانج واين . وكان

الصينيون يتخذون كتاب التغيرات كتاباً يدرسون فيه طرق التنبؤ بالغيب ، ويعدّونه أعظم تراثهم الأدبى ، ويقولون إن كل من فهم ما فيه من توافيق يدرك جميع القوانين الطبيعية . وقد نشر كنفوشيوس هذا الكتاب بنفسه ، وجمّله بما علق عليه من الحواشى ، وكان يفضله عن كل ما عداه من كتب الصينيين ، ويتمنى أن يخلو لنفسه خمسين عاماً يقضيها فى دراسته[٣١] .

ولا يتفق هذا السِّفر العجيب مع روح الفلسفة الصينية ، وهى الروح الإيجابية العملية ، وإن كان يلائم غموض النفس الصينية . ونحن نجد فى الصين فلاسفة فى أبعد الأزمان التى وصل إلينا تاريخها ، ولكن كل ما حفظه التاريخ لهم قبل أيام لَوْ — دْزَه ، لايعدو أن يكون قطعة مبتورة من هنا وهناك ، أو مجرد اسم من الأسماء ، وقد شهد القرنان السادس والخامس فى بلاد الصين ، كما شهدا فى الهند وفارس وبلاد اليهود واليونان ، عاصفة قوية من العبقرية الفلسفية والأدبية ، بدأت كما بدأت فى بلاد اليونان بعصر من « الاستنارة » العقلية .

ولقد سبق هذه الاستنارة عهد من الحروب والفوضى فتح أمام المواهب غير ذات الأنساب العريقة مسلك للرقىّ ، وحفز أهل المدن إلى أن يطلبوا لأنفسهم معلمين يثقفون أذهانهم بالفنون العقلية . وسرعان ما كشف معلمو الشعب ما فى علوم الدين من إبهام وغموض ، وما فى الأداة الحكومية من نقص ، وعرفوا أن المقاييس الأخلاقية مقاييس نسبية ، وشرعوا يبحثون عن المُثُل العليا والكمال المطلق . وقد أعدم الكثيرون من هؤلاء الباحثين على يد ولاة الأمور الذين وجدوا أن قتلهم أسهل من محاججتهم . وتقول إحدى الروايات الصينية إن كنفوشيوس نفسه ، وهو وزير الجريمة فى مقاطعة لو ، حكم بالإعدام على موظف صينى متمرد بحجة أنه « كان فى وسعه أن يجمع حوله طائفة كبيرة من الرجال ؛ وأن آراءه كانت تجد بسهولة من يستجيب لها من العامة ، وأن تجعل العناد صفة خليقة بالإكبار والإجلال ؛ وأن سفسطته كان فيها من المعارضة والمعاندة

ما يمكنها من الوقوف فى وجه الأحكام الحقة المعترف بها من الناس »[٣٢] .
ويصدق زوما — تشين هـذه القصة ، ولـكن بعض المؤرخين الصينيين يرفضونها[٣٣] ؛ ونحن نرجو ألا تـكون صحيحة .

وأشهر هؤلاء المتمردين العقليين هو تنج شى الذى أعدمه دوق چنج فى شباب كنفوشيوس ، ويقول كتاب ليه — دزه : إن تنج هذا كان « يعلم النظريات القائلة إن الحق والباطل أمران نسبيان ، ويؤيد هذه الآراء بحجج لا آخر لها»[٣٤] . واتهمه أعداؤه بأنه لم يكن يستنكف أن يثبت اليوم رأياً ويثبت عكسه فى غد ، إذا ما نال على عمله هذا ما يرتضيه من الأجر ؛ وكان يعرض خدماته على من لهم قضايا فى المحاكم ، ولا يرى ما يعوقه عن تقديمها لمن يطلبها من الناس .. ويروى عنه أحد أعدائه من المؤرخين الصينيين هذه القصة الطريفة :

غرق رجل موسر من الولاية التى كان يقيم فيها تنج فى نهر واى ، وأخرج رجل جثته من الماء ، وطلب إلى أسرة القتيل مبلغاً كبيراً من المال نظير إخراجها من النهر . وذهبت أسرة القتيل إلى تنج تستشيره فى الأمر ، فأجابها السوفسطائى بقوله : « تريثوا فلن تؤدى المال المطلوب أسرة غير أسرتكم » ، وعملت أسرة القتيل بهذه النصيحة . وقلق الرجل الذى كانت الجثة فى حوزته فجاء هو أيضاً إلى تنج شى يستنصحه . فنصحه السوفسطائى بما نصح به أهل القتيل إذ قال له : « تريث ؛ فإنهم لن يحصلوا على الجثة إلا منك »[٣٥]

ووضع تنج شى قانوناً للعقوبات تبيَّن أنه أرقى مما تطبقه حكومة چنج . ولما ضاق رئيس الوزراء ذرعاً بالنشرات التى كان تنج يحمل فيها على سياسته حرم إلصاقها فى الأماكن العامة ، فما كان من تنج إلا أن عمد إلى توزيعها على الناس بنفسه ، فلما حرم الوزير توزيع النشرات أخذ تنج يهربها إلى القراء مخبوءة بين أشياء أخرى ، فلما أعيت الحكومة الحيل أمرت بقطع رأسه[٣٦] .

٦ — المعلم القديم

لو — دزه — « الدّو » — رجال الفكر فى الحكومة — سخف القوانين — مدينة فاضلة على غرار مدينة روسو وقانون أخلاق على غرار القانون المسيحى — صورة الرجل الحكيم — التقاء لو — دزه وكنفوشيوس

كان لو — دزه ، أعظم فلاسفة الصين قبل كنفوشيوس ، أكثر حكمة من تنج شى ؛ فقد كان يعرف حكمة الصمت ، وما من شك فى أنه عمر طويلا وإن لم نكن واثقين من أنه عاش حقاً ويحدثنا المؤرخ الصينى زوماتشين أن لو — دزه عافت نفسه سفالة السياسيين ، ومل عمله فى أمانة مكتبة چو الملكية ، فاعتزم أن يغادر الصين ليبحث له عن ملجأ بعيد منعزل فى الريف . « فلما أن وصل إلى حدود البلاد قال له الحارس ين شى : إنك إذن تنشد العزلة ، وأنا أرجوك أن تكتب لى كتاباً . فكتب له لو — دزه كتاباً من جزأين فى الدّو و الدّى يشتمل على خمسة آلاف كلمة . ولما أن أتمه اختفى ولم يعلم أحد أين مات »[٣٧] .

لكن الروايات والأقاصيص ، التى لا تخفى عليها خافية ، تقول إنه عاش سبعة وثمانين عاما . ولم يبق لنا منه إلا اسمه وكتابه وقد لا يكون هذا أو ذاك له .

فأما لو — دزه ، فوصف معناه « المعلم القديم » وأما اسمه الحقيقى فهو ، كما تقول الرواية ، لى — أى البرقوقة .

والكتاب الذى يعزى إليه مشكوك فيه شكًّا أثار كثيراً من الجدل العلمى حول أصله[*] ولكن الباحثين جميعاً متفقون على أن الدو — ده — چنج — أي « كتاب الطريقة والفضيلة » — هو أهم النصوص الخاصة بالفلسفة الدّوية التى

(*) ويرى الأستاذ چيلز Giles أنه كتاب مزور ألف بعد عام ٢٠٠ ب . م . وقد اختلسه مؤلفه من هان فى[٣٨] الناقد وكاتب المقالات . أما الدكتور لج Dr Legge فيرى أن تكرار الإشارة إلى لو (وتسميته لتوثان) فى أقوال چوانج — دزه وأقوال زوماتشين يدل على أن الصينيين ظلوا على الدوام يعتقدون صحة نسة الدو — دى — چنج إلى مؤلفه .

يقول العلماء الصينيون إنها وجدت قبل لو — دزه بزمن طويل ، والتى كان لها من بعده أنصار من الطراز الأول ، والتى صارت فيما بعد ديناً تعتنقه أقلية كبيرة من الصينيين من أيامه إلى وقتنا هذا ، وجملة القول أن مؤلف الدو — ده — جنج مسألة ذات أهمية ثانوية ، وأما الآراء التى احتواها الكتاب فمن أبدع ما كتب فى تاريخ الفكر الإنسانى .

ومعنى لفظ الدَّو هو الطريقة : وهى أحياناً طريقة الطبيعة ، وأحياناً الطريقة الدَّوية للحياة الحكيمة . أما المعنى الحرفى لهذا اللفظ فهو الطريق . وهو فى الأصل طريقة للتفكير أو للامتناع عن التفكير ، وذلك لأن الدويين يرون أن التفكير أمر عارض سطحى لا خير فيه إلا للجدل والمحاجة ، يضر الحياة أكثر مما ينفعها . أما « الطريقة » فيمكن الوصول إليها بنبذ العقل وجميع مشاغله ، وبالالتجاء إلى حياة العزلة والتقشف والتأمل الهادئ فى الطبيعة . وليس العلم فى رأى صاحب الكتاب فضيلة ، بل إن السفلة قد زاد عددهم من يوم أن انتشر العلم . وليس العلم هو الحكمة ، ذلك أنه لا شىء أبعد عن الرجل الحكيم من « صاحب العقل » . وشر أنواع الحكومات التى يمكن تصورها حكومة الفلاسفة ؛ ذلك أنهم يقحمون النظريات فى كل نظام طبيعى ؛ وأكبر دليل على عجزهم عن العمل هو قدرتهم على إلقاء الخطب والإكثار من الآراء ، وفى ذلك يقول الكتاب :

إن المهرة لا يجادلون ؛ وأصحاب الجدل عطل من المهارة ... وإذا ما نبذنا المعارف نجونا من المتاعب .. والحكيم يبقى الناس على الدوام بلاعلم ولا شهوة ، وإذا وجد من لهم علم منعهم من الإقدام على العمل ... وإن الأقدمين الذين أظهروا براعتهم فى العمل بما فى الدو لم يفعلوا ما فعلوه لينيروا عقول الناس ، بل ليجعلوهم سذجاً جهلاء ... والصعوبة التى يواجهها الحكام إنما تنشأ من كثرة ما عند الناس من العلم ، ومن يحاول حكم دولة من الدول بعلمه وحكمته يشكل

بها ويفسد شئونها ، أما الذى لا يفعل هذا فهو نعمة لها وبركة[٤٠]

وإنما كان صاحب الفكر خطراً على الدولة لأنه لا يفكر إلا فى الأنظمة والقوانين ؛ فهو يرغب فى إقامة مجتمع على قواعد هندسية ، ولا يدرك أن أنظمته إنما تقضى على ما يتمتع به المجتمع من حرية حيوية ، وما فى أجزائه من نشاط وقوة . أما الرجل البسيط الذى يعرف من تجاربه ما فى العمل الذى يتصوره ويقوم به بكامل حريته من لذة ، وما ينتجه من ثمرة ، فهو أقل من العالم خطراً على الأمة إذا تولى تدبير أمورها ، لأنه لا يحتاج إلى من يدله على أن القانون شديد الخطر عليها ، وأنه قد يضرها أكثر مما ينفعها[٤١] . فهذا الرجل لا يضع للناس من الأنظمة إلا أقل قدر مستطاع ، وإذا تولى قيادة الأمة ابتعد بها عن جميع أفانين الخداع والتعقيد ، وقادها نحو البساطة العادية التى تسير فيها الحياة سيراً حكيما على النهج الطبيعى الحكيم الرتيب الخالى من التفكير ، وحتى الكتابة نفسها يهمل أمرها فى هذا النمط من الحكم لأنها أداة غير طبيعية تهدف إلى الشر . فإذا تحررت غرائز الناس الاقتصادية التلقائية التى تحركها شهوة الطعام والحب من القيود التى تفرضها الحكومات ، دفعت عجلة الحياة فى مسيرها الطبيعى الصحيح . وفى هذه الحال تقل المخترعات التى لا تفيد إلا فى زيادة ثراء الأغنياء وقوة الأقوياء ؛ وتمحى الكتب والقوانين والصناعات ولا تبقى إلا التجارة القروية .

« إن كثرة النواهى والمحرمات فى المملكة تزيد من فقر الأهلين . وكلما زاد عدد الأدوات التى تضاعف من كسبهم زاد نظام الدولة والعشيرة اضطراباً ، وكلما زاد ما يجيده الناس من أعمال الختل والحذق زاد عدد ما يلجئون إليه من حيل غريبة وكلما كثرت الشرائع والقوانين كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق ؛ ولهذا قال أحد الحكماء : لن أفعل شيئاً ، فيتبدل الناس من تلقاء أنفسهم ، وسأولع بأن أبقى ساكناً فينصلح الناس من تلقاء أنفسهم ، ولن أشغل بالى بأمور الناس فيثرى الناس من تلقاء أنفسهم ؛ ولن أظهر شيئاً من المطامع فيصل الناس من

تلقاء أنفسهم إلى ما كانوا عليه من سذاجة بدائية ...

وسأنظم الدولة الصغيرة القليلة السكان بحيث إذا وجد فيها أفراد للواحد منهم من الكفايات ما لعشرة رجال أو مائة رجل فلن يكون لهؤلاء الأفراد عمل ؛ وسأجعل الناس فيها ، وإن نظروا إلى الموت على أنه شيء محزن يؤسف له ، لا يخرجون منها (لينجوا بأنفسهم منه) ؛ ومع أن لهم سفناً وعربات فإنهم لا يرون ما يدعو إلى ركوبها ؛ ومع أن لهم ثياباً منتفخة وأسلحه حادة ، فإنهم لا يجدون مايدعو إلى لبس الأولى أو استخدام الثانية ، وسأجعل الناس يعودون إلى استخدام الحبال المعقودة(*) .

وسيرون أن طعامهم (الخشن) وملابسهم (البسيطة) جميلة ، ومساكنهم (الحقيرة) أمكنة للراحة ، وأساليبهم العادية المألوفة مصادر للذة والمتعة ، وإذا كانت هناك دولة مجاورة قريبة منا نراها بأعيننا وتصل إلى آذاننا منها نقنقة الدجاج ونباح الكلاب ، فإني لن أجعل للناس وإن طال عمرهم صلة بها إلى يوم مماتهم »(٤٢) .

تُرى ما هى هذه الطبيعة التى يرغب لَوْ — دزه ، فى أن يتخذها مرشداً له وهادياً ؟ إن هذا المعلم القديم يفرق بين الطبيعة والحضارة تفريقاً محدداً واضح المعالم ، كما فعل روسو من بعده فى عباراته الطنانة الرنانة التى يطلق عليها الناس اسم « التفكير الحديث » ؛ فالطبيعة فى نظره هى النشاط التلقائى ، وانسياب الحوادث العادية المألوفة ، وهى النظام العظيم الذى تتبعه الفصول وتتبعه السماء ؛ وهى الدَّو أو الطريقة الممثلة المجسمة فى كل مجرى وكل صخرة وكل نجم ؛ وهى قانون الأشياء العادل الذى لا يحفل بالأشخاص ، ولكنه مع ذلك قانون معقول يجب أن يخضع له قانون السلوك إذا أراد الناس أن يعيشوا فى حكمة وسلام . وقانون الأشياء هذا هو الدَّو أو طريقة الكون كما أن قانون السلوك هو الدَّو أو طريقة الحياة . ويرى

(*) طريقة فى نقل الأفكار سابقة على الكتابة . ولفظ أجعل هنا بعيد بعض البعد عن الأسلوب الودزى .

لَوْ — دزه ، أن الدَّوين فى واقع الأمر دو واحد ، وأن الحياة فى تناغمها الأساسى السليم ليست إلا جزءاً من تناغم الكون . وفى هذا الدَّو الكونى تتوحد جميع قوانين الطبيعة وتكون صارة الحقائق كلها التى يقول بها اسپنوزا ؛ وفيه تجد كل الصور الطبيعية على اختلاف أنواعها مكانها الصحيح ، وتجتمع كل المظاهر التى تبدو للعين مختلفة متناقضة ، وهو الحقيقة المطلقة التى تتجمع فيها كل الخصائص والمعضلات لتتكون منها وحدة هيجل Hegel الشاملة »(٤٣)

ويقول لَوْ إن الطبيعة قد جعلت حياة الناس فى الأيام الخالية بسيطة آمنة ، فكان العالم كله هنيئاً سعيداً . ثم حصل الناس «المعرفة» فعقدوا الحياة بالمخترعات وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية ، وانتقلوا من الحقول إلى المدن ، وشرعوا يؤلفون الكتب ، فنشأ من ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء ، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة . فالعاقل إذن من يبتعد عن هذا التعقيد الحضرى وهذا التيه المفسد الموهن تيه القوانين والحضارة ، ويختفى بين أحضان الطبيعة ، بعيداً عن المدن والكتب ، والموظفين المرتشين . والمصلحين المغترين . وسرّ الحكمة كلها وسر القناعة الهادئة ، وهى وحدها التى يجد فيها الإنسان السعادة الأبدية ، هو الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة ، ونبذ جميع أساليب الخداع وأفانين العقل ، وقبول جميع أوامر الطبيعة الصادرة من الغرائز ، والشعور فى ثقة واطمئنان ، والجرى على سنن الطبيعة الصامتة وتقليدها فى تواضع .

ولعلنا لا نجد فى الأدب كله فقرة أكثر انطباقاً على العقل والحكمة من الفقرة الآتية :

إن كل ما فى الطبيعة من أشياء تعمل وهى صامتة ، وهى توجد وليس فى حوزتها شىء ، تؤدى واجبها دون أن تكون لها مطالب ، وكل الأشياء على السواء تعمل عملها ثم تراها تسكن وتخمد ، وإذا ما ترعرعت وازدهرت عاد كل منها

إلى أصله ، وعودة الأشياء إلى أصولها معناها راحتها وأداؤها ما قدر لها أن تؤديه . وعودتها هذه قانون أزلى ، ومعرفة هذا القانون هى الحكمة[٤٤] .

والخمود الذى هو نوع من التعطل الفلسفى وامتناع عن التدخل فى سير الأشياء الطبيعى هو ما يمتاز به الحكيم فى جميع مناحى الحياة ، فإذا كانت الدولة مضطربة مختلة النظام فخير ما يُفعل بها ألا يحاول الإنسان إصلاح أمورها ، بل أن يجعل حياته نفسها أداء منظما لواجبه ، وإذا ما لاقى الإنسان مقاومة فأحكم السبل ألا يكافح أو يقاتل أو يحارب بل أن يتروى فى سكون ، وأن يكسب ما يريد أن يكسبه ، إذا كان لا بد من الكسب ، بالخضوع والصبر ؛ ذلك أن المرء ينال من النصر بالسكون أكثر مما ينال بالعمل ، وفى هذا يحدثنا لو — ذره حديثاً لا يكاد يختلف فى لهجته عن حديث المسيح !

« إذا لم تقاتل الناس فإن أحداً على ظهر الأرض لن يستطيع أن يقاتلك ... قابل الإساءة الإحسان . أنا خَيّر للأخيار ، وخَيّر أيضاً لغير الأخيار ؛ وبذلك يصير (الناس جميعاً) أخياراً ؛ وأنا مخلص للمخلصين ، ومخلص أيضاً لغير المخلصين ؛ وبذلك يصير (الناس جميعاً) مخلصين . . . وألين الأشياء فى العالم تصدم أصلبها وتتغلب عليها ... وليس فى العالم شىء ألين أو أضعف من الماء ، ولكن لا شىء أقوى من الماء فى مغالبة الأشياء الصلبة القوية[٤٥](*) .

وتبلغ هذه الآراء غايتها فى الصورة التى يتخيلها « لو » للرجل الحكيم . وقبل أن نرسم للقارئ هذه الصورة نقول إن من أخص خصائص المفكرين الصينيين أنهم لا يتحدثون عن القديسين ، بل يتحدثون عن الحكماء ، وأنهم

(*) ويضيف إلى ذلك فى شهادة طائشة . « إن الأنثى تغلب الذكر على الدوام بسكونها »[٤٦] .

لا يتحدثون عن الصلاح بقدر ما يتحدثون عن الحكمة . فليس الرجل المثالى فى نظر الصينيين هو التقى العابد ، بل هو صاحب العقل الناضج الهادئ ، الذى يعيش عيشة البساطة والسكون وإن كان خليقاً بأن يشغل مكاناً سامياً فى العالم . ذلك أن السكون هو بداية الحكمة ، والحكيم لا يتكلم حتى على الدوّ والحكمة ، لأن الحكمة لا تنقل إلا بالقدوة والتجربة لا بالألفاظ ؛ والذى يعرف (الطريقة) لا يتحدث عنها ؛ والذى يتحدث عنها لا يعرفها ؛ والذى (يعرفها) يقفل فاه ويسد أبواب خياشيمه »[٤٧] ، والحكيم شيمته التواضع ، لأن الإنسان متى بلغ الخمسين من عمره(*) فقد آن له أن يدرك أن المعرفة شىء نسبى ، وأن الحكمة شىء ضعيف سهل العطب ؛ وإذا عرف الحكيم أكثر مما يعرف غيره من الناس حاول أن يخفى ما يعرفه « فهو يحاول أن يقلل من سناه ولألائه ويوائم بين سناه وقتام (غيره)[٤٩] ؛ وهو يتفق مع السذج أكثر مما يتفق مع العلماء ، ولا يألم من غريزة المعارضة التى هى غريزة طبيعية فى الأحداث المبتدئين . وهو لا يعبأ بالثروة أو السلطان ، بل يُخضع شهواته إلى الحد الأدنى الذى يكاد يتفق مع العقيدة البوذية :

« ليس لشىء عندى قيمة ، وأشتهى أن يخضع قلبى خضوعاً تاماً ، وأن يفرغ حتى لا يبقى فيه شىء قط . . . يجب أن يبلغ الفراغ أقصى درجاته ، وأن يحاط السكون بقوة لا تمل ... ومن كانت هذه صفاته لا يمكن أن يعامل بجفاء أو فى غير كلفة . وهو أكبر من أن يتأثر بالمكاسب أو الأذى وبالنبل أو الانحطاط وهو أنبل إنسان تحت قبة السماء »[٥٠] .

(*) يعتقد الصينيون أن الحكيم تنضج قواه حوالى الخمسين من عمره ، وأنه يعيش فى هدوء منطوياً على حكمته مائة عام كاملة[٤٨] .

ولسنا نرى حاجة لبيان ما فى هذه الآراء من اتفاق مع آراء جان جاك روسو وحسبنا أن نقول إن الرجلين قد صُبّا فى قالب واحد مهما يكن بُعد ما بينهما من الزمن ، وإن فلسفتهما من نوع الفلسفة التى تظهر وتختفى ثم تعود إلى الظهور فى فترات دورية ؛ ذلك بأن الناس فى كل جيل يملّون ما فى حياة المدن من كفاح وقسوة وتعقيد وتسابق ، فيكتبون عن مباهج الحياة الريفية الرتيبة كتابة تستند إلى الخيال أكثر مما تستند إلى العلم بحقائق الأمور . وما من شك فى أن المرء لا بد له من خبرة سابقة طويلة بحياة المدن إذا شاء أن يكتب شعراً عن حياة الريف « والطبيعة » لفظ طيّع سهل على لسان كل باحث فى الأخلاق أو الدين ؛ وهو لا يوائم علم دارون ولا أخلاقية نتشة أكثر مما يوائم فلسفة « لو — دزه » والمسيح المتعقلة الحلوة .

ذلك أن الإنسان إذا ما سار على سنن الطبيعة أدى به هذا إلى قتل أعدائه وأكل لحومهم لا إلى ممارسة الفلسفة ، وقلّ أن يكون وضيعاً ذليلاً ، وأقلّ من هذا أن يكون هادئاً ساكناً . بل إن فلح الأرض — وهو العمل الشاق المؤلم — لا يوائم قط ذلك الجنس من الناس الذى اعتاد الصيد والقتل ؛ ولهذا كانت الزراعة من الأعمال « غير الطبيعية » مثلها فى هذا كمثل الصناعة سواء بسواء .

على أن فى هذه الفلسفة رغم هذا كله شيئاً من السلوى وراحة البال . وأكبر ظننا أننا نحن أيضاً حين تبدأ نيران عواطفنا فى الخمود نرى فيها غيرَ قليل من الحكمة ؛ ونرى فيها السلم المريح الذى ينبعث من الجبال غير المزدحمة ومن الحقول الرحبة . إن الحياة تتأرجح بين فلتير وروسو ، وبين كنفوشيوس ولو — دزه ، وبين سقراط والمسيح .

وإذا ما استقرت كل فكرة زمناً ما فى عقولنا ، ودافعنا عنها دفاعاً ليس فيه شىء من البسالة أو من الحكمة ، مللنا نحن أيضاً تلك المعركة وتركنا إلى الشباب ما كان قد تجمّع لدينا من مُثل عُليا تناقض عديدها . فإذا ما حدث هذا لجأنا إلى

الغابات مع چان چاك ومع لو — دزه وأمثالهما ؛ وصادقنا الحيوان ؛ وتحدثنا ونحن أكبر رضاً واطمئناناً من مكيڤلى إلى عقول الزراع السذج ، وتركنا العالم ينضح بالشرور ، ولم نفكر قط فى إصلاحه . ولعلنا وقتئذ نحرق وراءنا كل كتاب فيه إلا كتاباً واحداً ، ولعلنا نجد خلاصة الحكمة كلها فى الدَّو — دى — چنج .

وفى وسعنا أن نتصور ما كان لهذه الفلسفة فى نفس كنفوشيوس من أثر مؤلم محنق . فقد جاء هذا الفيلسوف فى سن الرابعة والثلاثين ، وهى السن التى لا يكتمل فيها نضوج الذهن ، إلى لوياڤ حاضرة چو ليستشير المعلم الكبير فى بعض أمور دقيقة ذات صلة بالتاريخ(*) ويقال إن لو — دزه أجابه إجابة فظة غامضة قصيرة :

« إن الذين تسأل عنهم قد استحالوا هم وعظامهم تراباً ، ولم يبق إلا ألفاظهم ، وإذا ما حانت ساعة الرجل العظيم قام من فوره وتولى القيادة ، أما قبل أن تحين هذه الساعة فإن العقبات تقام فى سبيل كل ما يحاوله . ولقد سمعت أن التاجر الموفق يحرص على إخفاء ثروته ، ويعمل عمل من لا يملك شيئاً من حطام الدنيا — وأن الرجل العظيم بسيط فى أخلاقه ومظهره رغم ما يقوم به من جلائل الأعمال ، فتخلص من كبريائك ومطامعك الكثيرة ، وتصنعك وآمالك المفرطة البعيدة . إن هذه كلها لا ترفع قط من أخلاقك . وهذا ما أشير به عليك »(٦١) .

ويقول المؤرخ الصينى الذى يروى هذه القصة إن كنفوشيوس أحسَّ من فوره بسداد هذه النصيحة ، ولم ير فى هذه الألفاظ ما يسىء إليه ، بل إنه رأى فيها عكس هذا ، وقال لتلاميذه بعد أن عاد من عند الفيلسوف المحتضر :

« إنى أعرف كيف يطير الطير ، ويسبَح السمك ، ويجرى الحيوان ؛

(*) ويروى زومان تشين أعظم المؤرخين الصينيين هذه القصة ، ولكنها قد تكون حديث خرافة . وإنا ليدهشنا حقاً أن نجد لو — دزة فى أكثر مدن الصين حركة فى السابعة والثمانين من عمره .

ولكن الذى يجرى على الأرض يمكن اقتناصه ، والذى يسبح فى الماء يمكن صيده ، والذى يطير فى الجو يمكن إصابته بالسهام . غير أن هناك تنيناً مهولا — ولست أستطيع أن أقول كيف يركب الريح ويخترق بها السحاب ويعلو فى أجواز الفضاء . لقد قابلت اليوم لو — دزه ، ولست أستطيع أن أجد له مثيلا غير التنين »[٦٢] . ثم خرج المعلم الجديد ليؤدى رسالته ، وليكون أعظم فلاسفة التاريخ أثراً .

obeikandl.com

الفصل الثانى

كنفوشيوس

١ — الحكيم يبحث عن دولة

مولده وشبابه — زواجه وطلاق زوجته — تلاميذه وطرائقه — مظهره وأخلاقه — السيدة والنمر — تعريف الحكومة الصالحة — كنفوشيوس فى منصبه — سنو التحوال — سلوى الشيخوخة

ولد كونج — فو — دْزه أو كونج المعلم كما كان تلاميذ كونج — تشيو يسمونه فى عام ٥٥١ ق . م فى مدينة تشو — فو إحدى البلاد التى كانت تكوِّن وقتئذ مملكة لو ، والتى تكون الآن ولاية شان تونج .

وتصف الأقاصيص الصينية ، وهى التى لا تضارعها أقاصيص أخرى فى خصب خيالها ، كيف أعلنت الأشباح إلى أمه الشابة مولده غير الشرعى[٦٣] ، وكيف كانت الهولات التى تحرسها والأرواح الأناث تعطر لها الهواء وهى تلده فى أحد الكهوف . وتقول تلك الأقاصيص إنه كان له ظهر تنين ، وشفتا ثور ، وفم فى سعة البحر[٦٤] ، وإنه ولد من أسرة هى أقدم الأسر الباقية على قيد الحياة إلى الآن لأنه (كما يؤكد علماء الأنساب الصينيون) من نسل الإمبراطور العظيم هوانج — دى ، وإن له أحفاداً كثيرين ، وإن نسله لم ينقطع إلى وقتنا هذا ولقد بلغ عدد من تناسل منهم منذ مائة عام أحد عشر ألفاً من الذكور ، ولا تزال البلدة التى ولد فيها حتى هذا اليوم لا يعمرها إلى نسله — أو بعبارة أدق إلا نسل ابنه الوحيد ؛ ومن نسله وزير المالية فى الحكومة الصينية القائمة للآن فى نانكنج[٦٥](*) .

(*) وتنطق أيضاً « نانچنج . ويقصد بقوله إلى وقتنا هذا وقت أن كتب هذا الكتاب

وكان والد كونج فى السبعين من عمره حين ولد له ولده[٦٦] ، ومات حين بلغ ابنه سن الثالثة . وكان كنفوشيوس يعمل بعد الفراغ من المدرسة ليساعد على إعالة والدته ، ولعله قد تعود فى طفولته تلك الرزانة التى هى من خصائص كبار السن ، والتى لازمته فى كل خطوة خطاها طوال حياته . لكنه مع هذا وجد متسعاً من الوقت يحذق فيه الرماية والموسيقى ؛ وبلغ من شدة ولعه بالموسيقى أنه كان يستمع مرة إلى لحن مطرب ، فتأثر به تأثراً حمله على أن يمتنع عن أكل اللحوم ، وظل بعدئذ ثلاثة أشهر لا يذوق فيها اللحم أبداً[٦٧] . ولم يكن يتفق اتفاقاً تاماً مع نتشة فى أن ثمة شيئاً من التناقض بين الفلسفة والزواج ، ذلك أنه تزوج فى التاسعة عشرة من عمره ، ولكنه طلق زوجته وهو فى الثالثة والعشرين ، ويلوح أنه لم يتزوج بعدها أبداً .

ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره بدأ يشتغل بالتعليم ، واتخذ داره مدرسة له ، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من الرسوم مهما كانت قليلة وكانت المواد التى يشملها برنامجه ثلاثا : التاريخ والشعر وآداب اللياقة . ومن أقواله : « إن أخلاق الرجل تكونها القصائد وتنميها المراسم » (أى آداب الحفلات والمجاملات) « وتعطرها الموسيقى »[٦٨] .

وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهياً لا يلجأ فيه إلى الكتابة ، ولهذا فإن أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل إلينا عن طريق أتباعه ومريديه ، وذلك مصدر لا يوثق به . وقد ترك إلى الفلاسفة مثلا قل أن يعبئوا به — وهو ألا يهاجموا قط غيرهم من المفكرين ، وألا يضيعوا وقتهم فى دحض حججهم . ولم يكن يعلم طريقة من طرائق المنطق الدقيق ، ولكنه كان يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم فى رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة العقلية . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول : ماذا أرى فى هذا ؟ فإنى لا أستطيع أن أفعل له شيئاً »[٦٩] . « وإنى لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص

على معرفته ، ولا أعين من لا يعنى بالإفصاح عما يكنه فى صدره . وإذا ماعرضت ركناً من موضوع ما على إنسان ، ولم يستطع مما عرضته عليه أن يعرف الثلاثة الأركان الباقية فإنى لا أعيد عليه درسى »[٧٠] ، ولم يكن يشك فى أن صنفين اثنين من الناس هما وحدهما اللذان يستطيعان أن يفيدا من تعاليمه.وهما أحكم الحكماء وأغبى الأغبياء ، وأن لا أحد يستطيع أن يدرس الفلسفة الإنسانية بأمانة وإخلاص دون أن نصلح دراستها من خلقه وعقله . « وليس من السهل أن نجد إنساناً واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح إنساناً صالحاً »[٧١] .

ولم يكن له فى بادئ الأمر إلا عدد قليل من التلاميذ ، ولكن سرعان ماتواترت الإشاعات بأن وراء شفتى الثور والفم الواسع كالبحر قلباً رقيقاً وعقلا يفيض بالعلم والحكمة ، فالتف الناس حوله حتى استطاع فى آخر أيام حياته أن يفخر بأنه قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا منزله ليشغلوا مراكز خطيرة فى العالم .

وكان بعض الطلبة — وقد بلغ عددهم فى وقت من الأوقات سبعين طالبا — يعيشون معه كما يعيش الطلبة الهنود المبتدئون مع مدرسيهم (الجورو) ؛ ونشأت بين المدرس وتلاميذه صلات ود وثيقة دفعت هؤلاء التلاميذ فى بعض الأحيان إلى الاحتجاج على أستاذهم حين رأوه يعرض نفسه للخطر أو اسمه للهانة . وكان رغم شدته عليهم يحب بعضهم أكثر مما يحب ابنه ، ولما مات هُوِى بكى عليه حتى قرحت دموعه مآقيه . وسأله دوق جاى يوماً من الأيام أى تلاميذه أحبهم إلى العلم فأجابه : « لقد كان أحبهم إلى العلم ين هوى ، لقد كان يحب أن يتعلم ... ولم أسمع بعد عن إنسان يحب أن يتعلم (كما كان يحب هوى) ... لم يقدم لى هوى معونة ، ولم أقل قط شيئاً لم يبتهج له . . . وكان إذا غضب كظم غيظه ؛ وإذا أخطأ مرة لم يعد إلى خطئه . ومما يؤسف له أنه كان قصير الأجل فمات وليس له فى هذا الوقت (نظير) »[٧٢] . وكان الطلبة الكسالى يتحاشون

لقاءه فإذا لقيهم قسا عليهم ، وذلك لأنه لم يكن يتورع عن أن يعلم الكسول بضربة من عكازته ويطرده من حضرته دون أن تأخذه به رأفة . ومن أقواله : « ما أشقى الرجل الذى يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم ، دون أن يجهد عقله فى شىء . . . لا يتواضع فى شبابه التواضع الخليق بالأحداث ، ولا يفعل فى رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره ، ثم يعيش إلى أرذل العمر — إن هذا الإنسان وباء »(٧٣) .

وما من شك فى أنه كان يبدو غريب المنظر وهو واقف فى حجرته أو فى الطريق العام ، يعلم مريديه التاريخ والشعر والآداب العامة والفلسفة ، ولا يقل استعداده وهو فى الطريق عن استعداده وهو فى حجرته . وتمثله الصور التى رسمها له المصورون الصينيون فى آخر سنى حياته رجلا ذا رأس أصلع لا تكاد تنمو عليه شعرة ، قد تجعد وتعقد لكثرة ما مر به من التجارب ، ووجه ينم عن الجد والرهبة ولا يُشعر قط بما يصدر عن الرجل فى بعض الأحيان من فكاهة ، وما ينطوى عليه قلبه من رقة ، وإحساس بالجمال مرهف يذكر المرء بأنه أمام إنسان من الآدميين رغم ما يتصف به من كمال لا يكاد يطاق ، وقد وصفه فى أيام كهولته الأولى مدرس له كان ممن يعلمونه الموسيقى فقال :

« لقد تبينت فى چونج — نى كثيراً من دلائل الحكمة ، فهو أجبه واسع العين ، لا يكاد يفترق فى هذين الوصفين عن هوانج — دى . وهو طويل الذراعين ذو ظهر شبيه بظهر السلحفاة ، ويبلغ طول قامته تسع أقدام (صينية) وست بوصات . . . وإذا تكلم أثنى على الملوك الأقدمين ، وهو يسلك سبيل التواضع والمجاملة ؛ وما من موضوع إلا سمع به ، قوى الذاكرة لا ينسى ما يسمع ؛ ذو علم بالأشياء لا يكاد ينفد . ألسنا نجد فيه حكيما ناشئاً ؟ »(٧٤) .

وتعزو إليه الأقاصيص « تسعاً وأربعين صفة عجيبة من صفات الجسم يمتاز بها عن غيره من الناس » . ولما فرقت بعض الحوادث بينه وبين مريديه فى أثناء

تجواله ، عرفوا مكانه على الفور من قصة قصها عليهم أحد المسافرين ، قال إنه التقى برجل بشع الخلقة « ذى منظر كئيب شبيه بمنظر الكلب الضال » . ولما أعيد هذا القول على مسامع كنفوشيوس ضحك منه كثيراً ولم يزد على أن قال : « عظيم ! عظيم ! »[٧٥].

وكان كنفوشيوس معلماً من الطراز القديم يعتقد أن التنائى عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم . وكان شديد المراعاة للمراسم ، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه ، وكان يبذل ما فى وسعه للحد من قوة الغرائز الشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة الصارمة . ويلوح أنه كان يزكى نفسه فى بعض الأحيان . ويروى عنه أنه قال عن نفسه يوماً من الأيام قالة فيها بعض التواضع : « قد يوجد فى كَفر من عشر أسر رجل فى مثل نبلى وإخلاصى ، ولكنه لن يكون مولعاً بالعلم مثلى »[٧٦]. وقال مرة أخرى : « قد أكون فى الأدب مساوياً لغيرى من الناس ، ولكن (خُلق) الرجل الأعلى الذى لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد »[٧٧] « لو وجد من الأمراء من يولينى عملا لقمت فى اثنى عشر شهراً بأعمال جليلة ، ولبلغت (الحكومة) درجة الكمال فى ثلاث سنين »[٧٨] . على أننا نستطيع أن نقول بوجه عام إنه كان متواضعاً فى عظمته . ويؤكد لنا تلاميذه أن « المعلم كان مبرأ من أربعة عيوب ؛ كان لا يجادل وفى عقله حكم سابق مقرر ، ولا يتحكم فى الناس ويفرض عليهم عقائده ، ولم يكن عنيداً أو أنانيا »[٧٩] . وكان يصف نفسه بأنه « ناقل غير منشئ »[٨٠] . وكان يدعى أن كل ما يفعله هو أن ينقل إلى الناس ما تعلّمه من الإمبراطورين العظيمين يُو وشون . وكان شديد الرغبة فى حسن السمعة والمناصب الرفيعة ، ولكنه لم يكن يقبل أن يتراضى على شىء مشين ليحصل عليهما أو يستبقيهما . وكم من مرة رفض منصباً رفيعاً عرضه عليه رجال بدا له أن حكومتهم ظالمة . وكان مما نصح به تلاميذه أن من واجب الإنسان أن يقول :

« لست أبالى مطلقاً إذا لم أشغل منصباً كبيراً ، وإنما الذى أعنى به أن أجعل نفسى خليقاً بذلك المنصب الكبير . وليس يهمنى قط أن الناس لا يعرفوننى؛ ولكننى أعمل على أن أكون حليقاً بأن يعرفنى الناس »[٨١] .

وكان من بين تلاميذه أبناء هانج هى ، أحد وزراء دوق لو ، وقد وصل كنفوشيوس عن طريقهم إلى بلاط ملوك چو فى لو — يانج ، ولكنه ظل بعيداً بعض البعد عن موظفى البلاط ، وآثر على الاقتراب منهم زيارة الحكيم لو — دزه وهو على فراش الموت كما سبق القول . فلما عاد إلى لو وجدها مضطربة ممزقة الأوصال بما قام فيها من نزاع وشقاق ، فانتقل منها إلى ولاية تنسى المجاورة لها ومعه طائفة من تلاميذه مخترقين فى طريقهم إليها مسالك جبلية وعرة مهجورة . ولشد ما كانت دهشتهم حين أبصروا فى هذه القفار عجوزاً تبكى بجوار أحد القبور . فأرسل إليها كنفوشيوس تسه — لو ، يسألها عن سبب بكائها وحزنها ، فأجابته قائلة : « إن والد زوجى قد فتك به نمر فى هذا المكان ، ثم ثنى النمر بزوجى ، وها هو ذا ولدى قد لاقى المصير نفسه » . ولما سألها كنفوشيوس عن سبب إصرارها على الإقامة فى هذا المكان الخطر ، أجابته قائلة : « ليس فى هذا المكان حكومة ظالمة » . فالتفت كنفوشيوس إلى طلابه وقال لهم : « أى أبنائى اذكروا قولها هذا ؛ إن الحكومة الظالمة أشد وحشية من النمر »[٨٢] .

وسئل كنفوشيوس بين يدى دوق تشى ، وسرّ الدوق من جوابه حين سأله عن ماهية الحكومة الصالحة : « توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميراً ، والوزير وزيراً ، والأب أباً والابن ابناً » ، وعرض عليه الدوق نظير تأييده إياه خراج مدينة لن — شيو ، ولكن كنفوشيوس رفض الهبة وأجابه بأنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه هذا الجزاء . وأراد الدوق أن يحتفظ به فى بلاطه وأن يجعله مستشاراً له ، ولكن جان ينج كبير وزرائه أقنعه بالعدول عن رأيه وقال له : « إن هؤلاء العلماء رجال غير عمليين لا يستطاع تقليدهم ؛ وهم متغطرسون مغرورون

بآرائهم ، لا يقنعون بما يعطى لهم من مراكز متواضعة ... وللسيد كونج هذا من الخصائص ما يبلغ الألف عدًّا .. ولو أردنا أن نلم بكل ما يعرفه عن مراسم الصعود والنزول لتطلب منا ذلك أجيالا طوالا »[٨٤] . ولم يثمر هذا اللقاء ثمرة ما ، وعاد كنفوشيوس على أثره إلى لو وظل يعلم تلاميذه فيها خمسة عشر عاما أخرى قبل أن يستدعى ليتولى منصباً عاماً فى الدولة .

وواتته الفرصة حين عيّن فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد كبير القضاة فى مدينة چونج — دو . وتقول الرواية الصينية إن المدينة فى أيامه قد اجتاحتها موجة جارفة من الشرف والأمانة ، فكان إذا سقط شىء فى الطريق بقى حيث هو أو أعيد إلى صاحبه[٨٥] . ولما رقاه الدوق دنج دوق لو إلى منصب نائب وزير الأشغال العامة شرع فى مسح أرض الدولة وأدخل إصلاحات جمة فى الشئون الزراعية ، ويقال إنه لما رقى بعدئذ وزيراً للجرائم كان مجرد وجوده فى هذا المنصب كافياً لقطع دابر الجريمة . وفى ذلك تقول السجلات الصينية : « لقد استحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلاّ برأسيهما واختفيا ، وأصبح الوفاء والإخلاص شيمة الرجال ، كما أصبح العفاف ودماثة الخلق شيمة النساء . وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى ، وأصبح كنفوشيوس معبود الشعب »[٨٦]

إن فى هذا الإطراء من المبالغة ما يجعله موضع الشك ؛ وسواء كان خليقاً به أو لم يكن فإنه كان أرقى من أن يعمر طويلا . وما من شك فى أن المجرمين قد يأتمرون بالمعلم الكبير ويدبرون المكائد للإيقاع به . ويقول المؤرخ الصينى : إن الولايات القريبة من « لو » دبّ فيها دبيب الحسد وخشيت على نفسها من قوة « لو » الناهضة . ودبّر وزير ماكر من وزراء تشى مكيدة ليفوق بها بين دوق « لو » وكنفوشيوس ، فأشار على دوق تشى بأن يبعث إلى تنج بسرب من حسان « الفتيات المغنيات » وبمائة وعشرين جواداً تفوق الفتيات جمالا ..

وأسرت البنات والخيل قلب الدوق ففقل عن نصيحة كنفوشيوس (وكان قد علمه أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم الصالح هو القدوة الصالحة) ، فأعرض عن وزرائه وأهمل شئون الدولة إهمالا معيباً . وقال تزه — لو — لكنفوشيوس : « أيها المعلم لقد آن لك أن ترحل » . واستقال كنفوشيوس من منصبه وهو كاره ، وغادر لو ، وبدأ عهدَ تجوال وتشرد دام ثلاثة عشر عاما . وقال فيما بعد « إنه لم ير قط إنساناً يحب الفضيلة بقدر مايحب الجمال »[٨٧] . والحق أن من أغلاط الطبيعة التى لاتغتفر لها أن الفضيلة والجمال كثيراً مايأتيان منفصلين لا مجتمعين .

وأصبح المعلم وعدد قليل من مريديه المخلصين مغضوبا عليهم فى وطنهم ، فأخذوا يتنقلون من إقليم إلى إقليم ، يلقون فى بعضها مجاملة وترحابا ، ويتعرضون فى بعضها الآخر لضروب من الحرمان والأذى . وهاجمهم الرعاع مرتين ، وكادوا فى يوم من الأيام يموتون جوعاً ، وبرّح بهم ألم الجوع حتى شرع تزه — لو نفسه يتذمر ويقول إن حالهم لا تليق « بالإنسان الراقى » . وعرض دوق وِىْ على كنفوشيوس أن يوليه رياسة حكومته ، ولكن كنفوشيوس رفض هذا العرض ، لأنه لم تعجبه مبادئ الدوق[٨٨] .

وبينما كانت هذه الفئة الصغيرة فى يوم من الأيام تجوس خلال تشى إذ التقت بشيخين عافت نفسهما مفاسد ذلك العهد ، فاعتزلا الشئون العامة كما اعتزلها لو — دزه ، وآثرا عليها الحياة الزراعية البعيدة عن جلبة الحياة العامة . وعرف أحد الشيخين كنفوشيوس ، ولام تزه — لو ، على سيره فى ركابه ، وقال له : « إن الاضطراب يجتاح البلاد اجتياح السيل الجارف ، ومنذا الذى يستطيع أن يبدل لكم هذه الحال ؟ أليس خيراً لكم أن تتبعوا أولئك الذين يعتزلون العالم كله ، بدل أن تتبعوا ذلك الذى يخرج من ولاية إلى ولاية ؟ »[٨٩] وفكر كنفوشيوس فى هذا اليوم طويلا ولكنه لم يفقد رجاءه فى أن تتيح له ولاية من الولايات فرصة يتزعم فيها حركة الإصلاح والسلم .

ولما بلغ كنفوشيوس التاسعة والستين من عمره جلس دوق جيه آخر الأمر على عرش لو وأرسل ثلاثة من موظفيه إلى الفيلسوف يحملون إليه مايليق من الهدايا بمقامه العظيم، ويدعونه أن يعود إلى موطنه ، وقضى كنفوشيوس الأعوام الخمسة الباقية من حياته يعيش معيشة بسيطة معززاً مكرماً ، وكثيراً ما كان يتردد عليه زعماء لو يستنصحونه ، ولكنه أحسن كل الإحسان بأن قضى معظم وقته فى عزلة أدبية منصرفا إلى أنسب الأعمال وأحبها إليه وهو نشر روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصينيين . ولما سأل دوق شى تزه — لو عن أستاذه ولم يجبه هذا عن سؤاله ، وبلغ ذلك الخبر مسامع كنفوشيوس ، قال له : « لم لم تجبه بأنه ليس إلا رجلا ينسيه حرصه على طلب العلم الطعام والشراب ، وتنسيه لذة (طلبه) أحزانه ، وبأنه لايدرك أن الشيخوخة مقبلة عليه »[٩٠] وكان يسلى نفسه فى وحدته بالشعر والفلسفة ، ويسره أن غرائزه تتفق وقتئذ مع عقله ، ومن أقواله فى ذلك الوقت : « لقد كنت فى الخامسة عشرة من عمرى مكباً على العلم ، وفى الثلاثين وقفت ثابتاً لا أتزعزع ، وفى سن الأربعين زالت عنى شكوكى ، وفى الخمسين من عمرى عرفت أوامر السماء ، وفى الستين كانت أذنى عضواً طيعاً لتلك الحقيقة ، وفى السبعين كان فى وسعى أن أطيع ما يهواه قلبى دون أن يؤدى بى ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل »[٩١] .

ومات كنفوشيوس فى الثانية والسبعين من عمره ، وسمعه بعضهم يوماً من الأيام يغنى فى الصباح الباكر تلك الأغنية الحزينة :

سيدك الجبل الشاهق دكا ،

وتتحطم الكتلة القوية ،

ويذبل الرجل الحكيم كما يذبل النبات .

ولما أقبل عليه تلميذه تزه — كونج قال له : « لن يقوم فى البلاد ملك

ذكى أريب ؛ وليس فى الإمبراطورية رجل يستطيع أن يتخذنى معلماً له . لقد تصرم أجلى وحان يومى »[٩٢].

ثم أوى إلى فراشه ومات بعد سبعة أيام من ذلك اليوم . ووارته تلاميذه التراب باحتفال مهيب جدير بما تنطوى عليه قلوبهم من حب له وإجلال ، وأحاطوا قبره بأكواخ لهم أقاموا فيها ثلاث سنين يبكونه كما يبكى الأبناء آباءهم . وبعد أن مضت هذه المدة غادروا جميعاً أكواخهم إلا تزه — كونج ، وكان حبه إياه يفوق حبهم جميعاً ، فبقى بجوار قبر أستاذه ثلاث سنين أخرى واجماً حزيناً تتشعبه الهموم[٩٣] .

٢ — الكتب الستة

وترك كنفوشيوس وراءه خمسة مجلدات يلوح أنه كتبها أو أعدها للنشر بيده هو نفسه ، ولذلك أصبحت تعرف فى الصين باسم « **المجلدات الخمسة** » أو « **كتب القانون الخمسة** » . وكان أول ما كتبه منها هو **اللى** — جى أو سجل المراسم ، لاعتقاده أن هذه القواعد القديمة من آداب اللياقة من الأسس الدقيقة التى لابد منها لتكوين الأخلاق ونضجها ، واستقرار النظام الاجتماعى والسلام .

ثم كتب بعدئذ ذيولا وتعليقات على كتاب **إلاى** — جنج أو كتاب **التغيرات** ، وكان يرى أن هذا الكتاب خير ما أهدته الصين إلى ذلك الميدان الغامض ميدان علم ما وراء الطبيعة الذى كان جد حريص على ألا يلج بابه فى فلسفته . ثم اختار ورتب **الشى** — جنج أو **كتاب الأناشيد** ليشرح فيه كنه الحياة البشرية ومبادئ الأخلاق الفاضلة . وكتب بعد ذلك **الشو** — شيو أو **حوليات الربيع والخريف** ، وقد سجل فيه تسجيلا موجزاً خالياً من التنميق أهم ما وقع من الأحداث فى « لو » موطنه الأصلى . وكان خامس أعماله

الأدبية وأعظمها نفعاً أنه أراد أن يوحى إلى تلاميذه أشرف العواطف وأنبل الصفات فجمع فى الشو—جنج أى كتاب التاريخ أهم وأرقى ما وجده فى حكم الملوك الأولين من الحوادث أو الأقاصيص التى تسمو بها الأخـلاق وتشرف الطباع ، وذلك حين كانت الصين إمبراطورية موحدة إلى حد ما ، وحين كان زعماؤها ، كما يظن كنفوشيوس ، أبطالا يعملون فى غير أنانية لتمدين الشعب ورفع مستواه .

ولم يكن وهو يعمل فى هذه الكتب يرى ان وظيفته هى وظيفة المؤرخ بل كان فيها معلماً ومهذباً للشباب ، ومن أجل هذا اختار عن قصد من أحداث الماضى ما رآه ملهماً لتلاميذه لا موئساً لهم .

فإذا ما عمدنا إلى هذه المجلدات لنستقى منها تاريخاً علميا نزيهاً لبلاد الصين فإنا بهذا العمل نظلم كنفوشيوس أشد الظلم . فقد أضاف إلى الحوادث الواقعية خطباً وقصصاً من عنده ، صب فيها أكثر ما يستطيع من الحض على الأخلاق الكريمة والإعجاب بالحكمة . وإذا كان قد جعل ماضى بلاده مثلا أعلى بين ماضى الشعوب ، فإنه لم يفعل أكثر مما نفعله نحن(*) بماضينا الذى لا يعدل ماضى الصين فى قدمه . وإذا كان رؤساء جمهوريتنا الأولون قد أضحوا حكماء وقديسين ، ولما يمض عليهم أكثر من قرن أو قرنين من الزمان ، فإنهم سيكونون بلا شك فى نظر المؤرخ الذى يُحَدّث عنهم بعد ألف عام من هذه الأيام مثلاً عليا للفضيلة والكمال شأنهم فى هذا شأن يَوْ وشُون .

ويضيف الصينيون إلى هـذه المجموعات الخمسة أربع شروحات أو « كتب » (كتب الفلاسفة) يتكوّن منها كلها « التسعة الكتب القديمة ». وأول هذه الكتب وأهمها جميعاً كتاب لون يو أو الأحاديث والمحاورات المعروف عند

(*) يريد الأمريكيين (المترجم)

قراء اللغة الإنجليزية باسم « مجموعة الشذرات » أى شذرات كنفوشيوس ، كما سماه « لج Legge » فى إحدى نزواته . وليست تلك الكتب مما خطه قلم المعلم الكبير ولكنها تسجل فى إيجاز ووضوح منقطعى النظير آراءه وأقواله كما يذكرها أتباعه. وقد جمعت كلها بعد بضع عشرات من السنين من وفاته ، ولعل الذين جمعوها هم مريدو مريديه[٩٤] ، وهى أقل ما يرتاب فيه من آرائه الفلسفية . وأكثر ما فى الكتب الصينية القديمة طرافة وأعظمها تهذيباً ما جاء فى الفقرتين الرابعة والخامسة[*] من الشو الثانى، وهو المؤلف المعروف عند الصينيين باسم الراشوه أو التعليم الأكبر ويعزو جوشى الفيلسوف والناشر الكنفوشى هاتين الفقرتين إلى كنفوشيوس نفسه كما يعزو باقى الرسالة إلى دزنج — تسان أحد أتباعه الصغار السن . أما كايا — كويه العالم الصينى الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد فيعزوهما إلى كونج چى حفيد كنفوشيوس ؛ على حين أن علماء اليوم المتشككين يجمعون على أن مؤلفهما غير معروف[٩٥] . والعلماء كلهم متفقون على أن حفيده هذا هو مؤلف كتاب جونج يونج أو عقيدة الوسط وهو الكتاب الفلسفى الثالث من كتب الصين . وآخر هذه الشوءات هو كتاب منشيس الذى سنتحدث عنه توًّا . وهذا الكتاب هو خاتمة الآداب الصينية القديمة وإن لم يكن خاتمة العهد القديم للفكر الصينى . وسنرى فيما بعد أنه خرج على فلسفة كنفوشيوس ، التى تعدّ آية فى الجمود والمحافظة على القديم ، متمردون عليها وكفرة بها ذوو مشارب وآراء متعددة متباينة .

(*) وهما اللتان نقلناهما فيما بعد فى صفحتى ٥٤ ، ٥٥ من هذا الكتاب . (المترجم)

٣ — لا أدرية كنفوشيوس

هتامة فى المنطق — الفلاسفة والصبيان — دستور الحكمة

فلنحاول أن نكون منصفين فى حكمنا على هذه العقيدة . ولنقر بأنها ستكون نظرتنا إلى الحياة حين يجاوز الواحد منا الخمسين من عمره ، ومبلغ علمنا أنها قد تكون أكثر انطباقاً على مقتضيات العقل والحكمة من شعر شبابنا . وإذا كنا نحن ضالين وشباناً فإنها هى الفلسفة التى يجب أن نقرن بها فلسفتنا نحن ، لكى ينشأ مما لدينا من أنصاف الحقائق شىء يمكن فهمه وإدراكه .

ولا يظن القارئ أنه سيجد فى لا أدرية كنفوشيوس نظاماً فلسفيا — أى بناء منسقاً من علوم المنطق ، وما وراء الطبيعة ، والأخلاق ، والسياسة ، تسرى فيه كله فكرة واحدة شاملة (فتخيله أشبه بقصور نبوخذ ناصر (بختنصر) التى نقش اسمه على كل حجر من حجارتها) .

لقد كان كنفوشيوس يعلّم أتباعه فن الاستدلال ، ولكنه لم يكن يعلمهم إياه بطريق القواعد أو القياس المنطقى ، بل بتسليط عقله القوى تسليطا دائما على آراء تلاميذه ؛ ولهذا فإنهم كانوا إذا غادروا مدرسته لا يعرفون شيئا عن المنطق ، ولكن كان فى وسعهم أن يفكروا تفكيراً واضحاً دقيقاً .

وكان أول الدروس ، التى يلقيها عليهم المعلم ، الوضوح والأمانة فى التفكير والتعبير ، وفى ذلك يقول : « كل ما يقصد من الكلام أن يكون مفهوما »[٩٦] — وهو درس لا تذكره الفلسفة فى جميع الأحوال . « فإذا عرفت شيئاً فتمسك بأنك تعرفه ؛ وإذا لم تعرفه فأقرّ بأنك لا تعرفه — وذلك فى حد ذاته معرفة »[٩٧] . وكان يرى أن غموض الأفكار ، وعدم الدقة فى التعبير ، وعدم الإخلاص فيه ، من الكوارث الوطنية القومية . فإذا كان الأمير الذى ليس أميراً بحق والذى لا يستمتع بسلطان الإمارة لا يسميه الناس أميراً ، وإذا كان

الأب الذى لا يتصف بصفات الأبوة لا يسميه الناس أبا ، وإذا كان الابن العاق لا يسميه الناس ابناً ، إذا كان هذا كله فإن الناس قد يجدون فى « تزه — لو » ما يحفزهم إلى إصلاح تلك العيوب التى طالما غطتها الألفاظ . ولهذا فإنه لما قال لكنفوشيوس : « إن أمير ويه فى انتظارك لكى تشترك معه فى حكم البلاد ، فما هو فى رأيك أول شىء ينبغى عمله ؟ أجابه كنفوشيوس جواباً دهش له الأمير والتلميذ : « إن الذى لا بد منه أن تصحح الأسماء »[٩٨] .

ولما كانت النزعة المسيطرة على كنفوشيوس هى تطبيق مبادئ الفلسفة على السلوك وعلى الحكم فقد كان يتجنب البحث فيما وراء الطبيعة ، ويحاول أن يصرف عقول أتباعه عن كل الأمور الغامضة أو الأمور السماوية . صحيح أن ذكر « السماء » والصلاة[٩٩] كان يرد على لسانه أحياناً ، وأنه كان ينصح أتباعه بألا يغفلوا عن الطقوس والمراسم التقليدية فى عبادة الأسلاف والقرابين القومية[١٠٠] ، ولكنه كان إذا وجه إليه سؤال فى أمور الدين أجاب إجابة سلبية جعلت شرّاح آرائه المحدثين يجمعون على أن يضموه إلى طائفة اللا أدريين[١٠١] . فلما أن سأله تزه — كونج ، مثلا : « هل لدى الأموات علم بشىء أو هل هم بغير علم ؟ » أبى أن يجيب جوابا صريحا[١٠٢] . ولما سأله كنْ — لو ، عن « خدمة الأرواح » (أرواح الموتى) أجابه « إذا كنت عاجزاً عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم ؟ » . وسأله كنْ — لو : « هل أجرؤ على أن أسألك عن الموت ؟ » فأجابه : « إذا كنت لا تعرف الحياة ، فكيف يتسنى لك أن تعرف شيئا عن الموت »[١٠٣] . ولما سأله فارشي عن « ماهية الحكمة » قال له : « إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس ، وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها أمكن أن تسمى هذه حكمة »[١٠٤] .

ويقول لنا تلاميذه إن « الموضوعات التى لم يكن المعلم يخوض فيها هى الأشياء

الغريبة غير المألوفة ، وأعمال القوة ، والاضطراب ، والكائنات الروحية »[١٠٥] وكان هذا التواضع الفلسفى يقلق بالهم ، وما من شك فى أنهم كانوا يتمنون أن يحل لهم معلمهم مشاكل السموات ويطلعهم على أسرارها . ويقص علينا صاحب كتاب — لياتزه وهو مغتبط قصة غلمان الشوارع الذين أخذوا يسخرون من كنفوشيوس حين أقر لهم بعجزه عن هذا السؤال السهل وهو : « هل الشمس أقرب إلى الأرض فى الصباح حين تبدو أكبر ما تكون ، أو فى منتصف النهار حين تشتد حرارتها ؟ »[١٠٦] . وكل ما كان كنفوشيوس يرضى أن يقره من البحوث فيما وراء الطبيعة هو البحث عما بين الظواهر المختلفة جميعها من وحدة ، وبذل الجهد لمعرفة ما يوجد من تناغم وانسجام بين قواعد السلوك لحسن واطراد النظم الطبيعية :

وقال مرة لأحد المقربين إليه : « أظنك يا تزه تعتقد أنى من أولئك الذين يحفظون أشياء كثيرة ويستبقونها فى ذاكرتهم ؟ » فأجابه تزه — كونج بقوله : « نعم أظن ذلك ولكنى قد أكون مخطئاً فى ظنى ! » فرد عليه الفيلسوف قائلا « لا ، إنى أبحث عن الوحدة ، الوحدة الشاملة »[١٠٧] وذلك بلا ريب هو جوهر الفلسفة .

وكانت الأخلاق مطلبه وهمه الأول ، وكان يرى أن الفوضى التى تسود عصره فوضى خلقية ، لعلها نشأت من ضعف الإيمان القديم وانتشار الشك السوفسطائى فى ماهية الصواب والخطأ . ولم يكن علاجها فى رأيه هو العودة إلى العقائد القديمة وإنما علاجها هو البحث الجدى عن معرفة أتم من المعرفة السابقة ، وتجديد أخلاق قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم . والفقرتان الآتيتان المنقولتان عن كتاب التعليم الأكبر تعبران أصدق تعبير وأعمقه عن المنهج الفلسفى الكنفوشى .

« إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل فى أنحاء الإمبراطورية

قد بدءوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدءوا بتنظيم أسرهم ، ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدءوا بتهذيب نفوسهم ؛ ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدءوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم ؛ ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم بدءوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع فى المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء .

فلما أن بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملا ، ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم ، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم ، ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم ، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم ؛ ولما صلح حكم ولاياتهم أضحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة(١٠٨) .

تلك هى مادة الفلسفة الكنفوشية ، وهذا هو طابعها ، وفى وسع الإنسان أن ينسى كل ما عدا هذه الألفاظ من أقوال المعلم وأتباعه ، وأن يحتفظ بهذه المعانى التى هى « جوهر الفلسفة وقوامها » وأكمل مرشد للحياة الإنسانية . ويقول كنفوشيوس : « إن العالم فى حرب لأن الدول التى يتألف منها فاسدة الحكم ؛ والسبب فى فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعى الطبيعى الذى تهيئة الأسرة . والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الاجتماعى الطبيعى ، لأن الناس ينسون أنهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يقوّموا نفوسهم ؛ وهم يعجزون عن أن يقوّموا نفوسهم لأنهم لم يطهروا قلوبهم أى أنهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدنيئة ؛ وقلوبهم غير طاهرة لأنهم غير مخلصين فى تفكيرهم ، لا يقدّرون الحقائق قدرها ويخفون طبائعهم بدل أن يكشفوا عنها ؛ وهم لا يخلصون فى تفكيرهم لأن أهواءهم تشوه الحقائق وتحدد لهم النتائج بدل أن يعملوا على توسيع دائرة معارفهم إلى أقصى حد مستطاع

ببحث طبائع الأشياء بحثاً منزهاً عن الأهواء : فليسع الناس إلى المعارف المنزهة عن الهوى يخلصوا فى تفكيرهم ؛ وليخلصوا فى تفكيرهم تتطهر قلوبهم من الشهوات الفاسدة ؛ ولتطهر قلوبهم على هذه الصورة تصلح نفوسهم ؛ ولتصلح نفوسهم تصلح من نفسها أحوال أسرهم ؛ وليس الذى تصلح به هذه الأسر هو المواعظ التى تحث على الفضيلة أو العقاب الشديد الرادع ، بل الذى يصلحها هو ، ما للقدوة الحسنة من قوة صامتة ؛ ولتنظم شئون الأسرة عن طريق المعرفة والإخلاص والقدوة الصالحة ، يتهيأ للبلاد من تلقاء نفسه نظام اجتماعى يتيسر معه قيام حكم صالح .

ولتحافظ الدولة على الهدوء فى أرضها والعدالة فى جميع أرجائها ، يسد السلام العالم بأجمعه ويسعد جميع من فيه — تلك نصيحة تدعو إلى الكمال المطلق وتنسى أن الإنسان حيوان مفترس ؛ ولكنها كالمسيحية تحدد لنا هدفاً نسعى لندركه ، وسلماً نرقاه لنصل به إلى هذا الهدف . وما من شك فى أن فى هذه النصوص قواعد فلسفية ذهبية .

٤ — طريقة الرجل الأعلى

صورة أخرى من صور الحكيم — عناصر الأخلاق — القاعدة الذهبية

وإذن فالحكمة تبدأ فى البيت ، وأساس المجتمع هو الفرد المنظم فى الأسرة المنتظمة ، وكان كنفوشيوس يتفق مع جوته فى أن الرقى الذاتى أساس الرقى الاجتماعى ؛ ولما سأله تزه — لو « ما الذى يكون الرجل الأعلى ؟ » أجابه بقوله « أن يثقف نفسه بعناية ممزوجة بالاحترام »[١٠٩] ، ونحن نراه فى مواضع متفرقة من محاوراته يرسم صورة الرجل المثالى كما يراه هو جزءاً جزءاً — والرجل المثالى فى اعتقاده هو الذى تجتمع فيه الفلسفة والقداسة فيتكون منهما الحكيم . والإنسان الكامل الأسمى فى رأى كنفوشيوس يتكون من فضائل ثلاث كان كل من سقراط ونتشة والمسيح يرى الكمال كل الكمال فى كل واحدة منها بمفردها :

وتلك هى الذكاء والشجاعة وحب الخير . وفى ذلك يقول : « الرجل الأعلى يخشى ألا يصل إلى الحقيقة ، وهو لا يخشى أن يصيبه الفقر ... وهو واسع الفكر غير متشيع إلى فئة ... وهو يحرص على ألا يكون فيما يقوله شىء غير صحيح »[١١٠]

ولكنه ليس رجلا ذكيا وحسب ، وليس طالب علم ومحباً للمعرفة وكفى ، بل هو ذو خلق وذو ذكاء ؛ « فإذا غلبت فيه الصفات الجسمية على ثقافته وتهذيبه كان جلفا ، وإذا غلبت فيه الثقافة والتهذيب على الصفات الجسمية تمثلت فيه أخلاق الكتبة ؛ أما إذا تساوت فيه صفات الجسم والثقافة والتهذيب ، وامتزجت هذه بتلك ، كان لنا منه الرجل الكامل الفضيلة »[١١١] . فالذكاء هو الذهن الذى يضع قدميه على الأرض .

وقوام الأخلاق الصالحة هو الإخلاص ، « وليس الإخلاص الكامل وحده هو الذى يميز الرجل الأعلى »[١١٢] « إنه يعمل قبل أن يتكلم ، ثم يتكلم بعدئذ وفق ما عمل »[١١٣] « ولدينا فى فن الرماية ما يشبه طريقة الرجل الأعلى . ذلك أن الرامى إذا لم يصب مركز الهدف رجع إلى نفسه ليبحث فيها عن سبب عجزه »[١١٤] .

« إن الذى يبحث عنه الرجل الأعلى هو ما فى نفسه ؛ أما الرجل المنحط فيبحث عما فى غيره ... والرجل الأعلى يحزنه نقص كفايته ، ولا يحزنه ... ألا يعرفه الناس » ، ولكنه مع ذلك « يكره أن يفكر فى ألا يُذكر اسمه بعد موته »[١١٥] ؛ وهو متواضع فى حديثه ولكنه متفوق فى أعماله ... قل أن يتكلم ، فإذا تكلم لم يشك قط فى أنه سيصيب هدفه ... والشىء الوحيد الذى لا يدانى فيه الرجل الأعلى هو عمله الذى لا يستطيع غيره من الناس أن يراه »[١١٦] . وهو معتدل فى قوله وفعله « والرجل الأعلى يلتزم الطريق الوسط »[١١٧] فى كل شىء ؛ ذلك أن « الأشياء التى يتأثر بها الإنسان كثيرة لا حصر لها ؛ وإذا لم يكن

ما يحب وما يكره خاضعين للسنن والقواعد تبدلت طبيعته إلى طبيعة الأشياء التى تعرض له »[١١٨](*) « والرجل الأعلى يتحرك بحيث تكون حركاته فى جميع الأجيال طريقاً عاما ؛ ويكون سلوكه بحيث تتخذه جميع الأجيال قانوناً عاما ، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه فى جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ »[١٢٠](**) وهو يستمسك أشد الاستمساك بالقاعدة الذهبية التى نص عليها هذا صراحة قبل هلل بأربعة قرون وقبل المسيح بخمسة : « فقد سأل چونج — جونج المعلم عن الفضيلة الكاملة فكان جوابه ... الفضيلة الكاملة ألا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يُفعل بك »[١٢٢] . وهذا المبدأ يتكرر مراراً وهو دائما يتكرر فى صيغة النفى ، وقد ذكر مرة فى كلمة واحدة . ذلك أن تزه — چونج سأله مرة : أليس ثمة كلمة واحدة يستطيع الإنسان أن يتخذها قاعدة يسير عليها طوال حياته ؟ فأجابه المعلم : أليست هذه الكلمة هى المبادلة ؟ »[١٢٣] ، ولكنه لم يكن يرغب فيما يرغب فيه لوَدْزَه وهو أن يقابل الشر بالخير ، فلما أن سأله أحد تلاميذه : « ما قولك فى المبدأ القائل بأن الإساءة يجب أن تجزى بالإحسان ؟ » أجاب بحدة لم يألفها تلاميذه منه : « وبأى شىء إذن تجزى الإحسان ؟ لتكن العدالة جزاء الإساءة ، وليكن الإحسان جزاء الإحسان »[١٢٤] .

وكان يرى أن القاعدة الأساسية التى تقوم عليها أخلاق الرجل الأعلى هى العطف الفياض على الناس جميعاً . والرجل الأعلى لا يغضبه أن يسمو غيره من الناس ، فإذا رأى أفاضل الناس فكر فى أن يكون مثلهم ؛ وإذا رأى سفلة الناس عاد إلى نفسه يتقصى حقيقة أمره »[١٢٤أ] . ذلك أنه قلما توجد أخطاء لا نشترك

(*) قارن هذا بما يقوله اسبنوزا : « إن عوامل خارجة عنا تدفعنا إلى طرق كثيرة مختلفة ، فنترنح ونضطرب اضطراب الأمواج تدفعها الرياح المختلفة المهاب ، ولا نعرف مصيرنا أو عاقبة أمرنا »[١١٩] .

(**) قارن هذا بقانون الأخلاق « القاطع الإلزامى » الذى يقول به كانت وهو « لتكن إرادتك بحيث يمكن أن تكون القاعدة التى تسير عليها فى أعمالك قانوناً عاماً شاملا »[١٢١] .

فيها مع جيراننا . وهو لا يبالى أن يفترى عليه الناس أو يسلقوه بألسنة حداد[١٢٤]، مجامل بشوش لجميع الناس ، ولكنه لا يكيل المدح جزافا[١٢٥] ؛ لا يحقر من هم أقل منه ، ولا يسعى لكسب رضاء من هم أعلى منه[١٢٦] ، وهو جاد فى سلوكه وتصرفاته ، لأن الناس لا يوقرون من لا يلتزم الوقار فى تصرفاته معهم ؛ متريث فى أقواله ، حازم فى سلوكه ، يصدر فى أعماله عن قلبه ؛ غير متعجل بلسانه ولا مولع بالإجابات البارعة السكاتة ؛ وهو جاد لأن لديه عملا يحرص على أدائه — وهذا هو سر مهابته غير المسكتة[١٢٧] ؛ وهو بشوش لطيف حتى مع أقرب الناس إليه وألصقهم به ، ولكنه يصون نفسه عن التبذل مع الناس جميعاً حتى مع ابنه[١٢٨] . ويجمع كنفوشيوس صفات رَجُله الأعلى الكثير الشبه « برجل أرسطو ذى العقل الكبير » فى هذه العبارة .

« يضع الرجل الأعلى نصب عينيه تسعة أمور لا ينفك يقلبها فى فكره . فأما من حيث عيناه فهو يحرص على أن يرى بوضوح ... ؛ وأما من حيث وجهه فهو يحرص على أن يكون بشوشاً ظريفاً ؛ وأما من حيث سلوكه فهو يحرص على أن يكون وقوراً ؛ وفى حديثه يحرص على أن يكون مخلصا ؛ وفى تصريف شئون عمله يحرص على أن يبذل فيه عنايته ، وأن يبعث الاحترام فيمن معه ؛ وفى الأمور التى يشك فيها يحرص على أن يسأل غيره من الناس ؛ وإذا غضب فكر فيما قد يجره عليه غضبه من الصعاب ؛ وإذا لاحت له المكاسب فكر فى العدالة والاستقامة[١٢٩] .

٥ — سياسة كنفوشيوس

سيادة الشعب — الحكم بالقدوة — عدم تركز الثروة — الموسيقى والأخلاق — الاشتراكية والثورة

ويعتقد كنفوشيوس أن هؤلاء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يعيدوا بناء

الأسرة وأن ينقذوا الدولة . فالمجتمع يقوم على إطاعة الأبناء آباءهم ؛ والزوجة زوجها ؛ فإذا ذهبت هذه الطاعة حلت محلها الفوضى[١٣٠] .

وليس ثمة ما هو أسمى من قانون الطاعة هذا إلا شيء واحد وهو القانون الأخلاقي .

« في وسع (الابن) وهو في خدمة أبويه أن يجادلهما بلطف ؛ فإذا رأى أنهما لا يميلان إلى اتباع (نصيحته) زاد احترامه لهما ، من غير أن يتخلى عن (قصده) ؛ فإذا أمر الوالد ابنه أمراً خطأ وجب عليه أن يقاومه ، وعلى الوزير أن يقاوم أمر سيده الأعلى في مثل هذه الحال »[١٣١] . وفي هذا القول يضع كنفوشيوس مبدأ من مبادئ منشيس التي تقرر حق الناس المقدس في الثورة .

على أن كنفوشيوس لم يكن بالرجل الثوري النزعة ؛ ولعله ما كان يظن أن من ترفعهم الثورة لم يخلقوا من طينة غير طينة من تطيح بهم . ولكنه رغم هذه الميول كان جريئاً فيما كتبه في **كتاب الأغاني** : « قبل أن تفقد ملوك أسرة (شانج) (قلوب) الشعب كانوا أحباء الله . فليكن فيما حل ببيت شانج نذير لكم ؛ إن الأمر العظيم لا يسهل دائما الاحتفاظ به »[١٣٢] . والشعب هو المصدر الفعلي الحقيقي للسلطة السياسية ، ذلك أن كل حكومة لا تحتفظ بثقة الشعب تسقط لا محالة عاجلا كان ذلك أو آجلا .

« وسأل تزه — كونج ، عن الحكم فقال له المعلم : « (لا بد للحكومة) من أن تحقق أموراً ثلاثة ، أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام ، وكفايتهم من العتاد الحربي ، ومن الثقة بحكامهم » . فقال تزه — كونج : « فإذا لم يكن بد من الاستغناء عن أحد هذه الشروط ، فأي هذه الثلاثة يجب أن تتخلى عنه أولا ؟ » فأجاب المعلم : « العتاد الحربي » . وسأله تزه — كونج مرة أخرى ، وإذا كان لا بد من الاستغناء عن أحد الشرطين الباقيين فأيهما يجب أن تتخلى عنه ؟ » .

فأجاب المعلم : « فلنتخلّ عن الطعام ؛ ذلك أن الموت كان منذ الأزل قضاء محتوماً على البشر ، أما إذا لم يكن للناس ثقة (بحكامهم) فلا بقاء (للدولة) » .

ويرى كنفوشيوس أن المبدأ الأول الذى يقوم عليه الحكم هو نفس المبدإ الأول الذى تقوم عليه الأخلاق — ألا وهو الإخلاص . ولهذا كانت أداة الحكم الأولى هى القدوة الصالحة ؛ ومعنى هذا أن الحاكم يجب أن يكون المثل الأعلى فى السلوك الحسن ، حتى يحذو الناس حذوه ، فيعم السلوك الطيب جميع أفراد شعبه .

وسأل كى كانج كنفوشيوس عن الحكومة قائلا : « ما قولك فى قتل مَن لا مبدأ لهم ولا ضمير لخير أصحاب المبادئ والضمائر ؟ » فأجابه كنفوشيوس : « وما حاجتك يا سيدى إلى القتل فى قيامك بأعباء الحكم ؟ لتكن نيتك الصريحة البينة فعل الخير يكن الناس أخياراً . إن العلاقة القائمة بين الأعلى والأدنى لشبيهة بالعلاقة بين الريح والكلأ ، فالكلأ يميل إذا هبت عليه الريح ... وما أشبه الذى ينهج فى حكمه نهج الفضيلة بالنجم القطبى الذى لا يتحول عن مكانه والذى تطوف النجوم كلها حوله ... »

وسأل كى كانج كيف يحمل الناس على أن يجلّوا (حاكمهم) ، وأن يخلصوا له ، وأن يلتزموا جانب الفضيلة ؟ فأجابه المعلم : « فليرأسهم فى وقار — يحترموه ، وليكن عطوفاً عليهم رحيما بهم يخلصوا له . وليقدّم الصالحين ويعلّم العاجزين — يحرصوا على أن يكونوا فضلاء »[١٣٤] .

وإذا كانت القدوة الحسنة أولى وسائل الحكم ، فإن حسن الاختيار للمناصب وسيلته الثانية : « استعمل الصالحين المستقيمين ، وانبذ المعوجّين ، وبهذه الطريقة يستقيم المعوجّ »[١٣٥] .

وتقول **عقيدة الوسط** : « إن تصريف شئون الحكم إنما يقوم على

(استعمال من يصلح له من الناس) وما من سبيل إلى الحصول على هؤلاء الناس إلا أن تكون أخلاق (الحاكم) نفسه صالحة »[١٣٦].

وأى شيء لا تستطيع الوزارة المؤلفة من الرجال الأعلين أن تعمله فى جيل واحد لتطهير الدولة والارتفاع بالشعب إلى مستوى عال من الحضارة ؟[١٣٧] — إن أول ما يحرصون عليه ألا تكون لهم قدر المستطاع علاقات خارجية ، وأن يعملوا على أن يكتفوا بغلاّتهم عن غلاّت غيرهم ، حتى لا تشن أمتهم الحرب على غيرها من الأمم للحصول على هـذه الغلاّت ، ثم يقللوا من ترف بطانة الملوك ويعملوا على توزيع الثروة فى أوسع نطاق لأن « تركيز الثروة هو السبيل إلى تشتيت الشعب ، وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته »[١٣٨] ، ثم يخففوا العقاب وينشروا التعليم العام لأن « التعليم إذا انتشر انعدمت الفروق بين الطبقات »[١٣٩]

ويشير كنفوشيوس بألا تدرس الموضوعات العليا لذوى المواهب الوسطى ، أما الموسيقى فيجب أن تعلم للناس أجمعين .

ومن أقواله فى هذا : « إذا أتقن الإنسان الموسيقى ، وقوم عقله وقلبه بمقتضاها وعلى هديها تطهّر قلبه وصار قلباً طبيعياً ، سليماً ، رقيقاً ، عامراً بالإخلاص والوفاء ، يغمره السرور والبهجة ... وخير الوسائل لإصلاح الأخلاق والعادات ... أن توجّه العناية إلى الموسيقى التى تعزف فى البلاد[*] ... والأخلاق الطيبة والموسيقى يجب ألا يهملهما الإنسان ... فالخير شديد الصلة بالموسيقى والاستقامة تلازم الأخلاق الطيبة على الدوام .

وعلى الحكومة أن تعنى أيضاً بغرس الأخلاق الطيبة ، ذلك أن الأخلاق إذا فسدت فسدت الأمة معها[**] . وآداب اللياقة هى التى تكون على الأقل

(*) قال دانيل أوكنل : « دعونى أكتب أغانى الأمة ، ولست أبالى بعد ذلك من يسنّ شرائعها » .

(**) قارن هذا بقول المرحوم شوقى :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا (المترجم)

المظهر الخارجي لأخلاق الأمة وإن لم يدرك الناس هذا[١٤١] ، وهى تضفى على الحكيم لطف الرجل المهذب ؛ وما من شك فى أن المرء ابن عادته . أما من الوجهة السياسية « فآداب اللياقة حواجز تقوم بين الناس وبين الانغماس فى المفاسد » ، و « من ظن أن الحواجز القديمة لا نفع فيها فهدَّمها حلّت به الكوارث الناشئة من طغيان المياه الجارفة »[١٤٢] .

ويكاد الإنسان يسمع هذا القول الصارم الذى نطق به المعلم الغاضب يتردد هذه الأيام فى جنبات « بهو الآداب القديمة » التى نقشت ألفاظها على حجارته ، والتى دنستها أوضار الثورة وحقرتها .

ومع هذا فقد كان لكنفوشيوس أيضاً أحلامه ومثله العليا فى الحكومات والدول . فقد كان يعطف فى بعض الأحيان على الذين إذا اقتنعوا بأن الأسرة الحاكمة فقدت « الأمر الأعلى » أى « أمر السماء » قوضوا أركان نظام من نظم الحكم لكى يقيموا على أنقاضه نظاماً خيراً منه . وقد اعتنق فى آخر الأمر المبادئ الاشتراكية وأطلق فيها لخياله العنان !

« إذا ساد المبدأ الأعظم (مبدأ التماثل الأعظم) أصبح العالم كله جمهورية واحدة ؛ واختار الناس لحكمهم ذوى المواهب والفضائل والكفايات(*) ؛ وأخذوا يتحدثون عن الحكومة المخلصة ، ويعملون على نشر لواء السلم الشاملة . وسينئذ لا يرى الناس أن آباءهم هم من ولدوهم دون غيرهم ، أو أن أبناءهم هم من ولدوا لهم ، بل تراهم يهيئون سبل العيش للمسنين حتى يستوفوا آجالهم ، ويهيئون العمل للكهول ، ووسائل النماء للصغار ، ويكفلون الحياة للأرامل من الرجال والنساء ، واليتامى وعديمى الأبناء ، ومن أقعدهم المرض عن العمل . هنالك يكون لكل إنسان حقه ، وهنالك تصان شخصية المرأة فلا يعتدى عليها .

(*) ما أشبه هذا بما يدعو إليه بعض الكتاب فى هذا الجيل — أمثال هـ . ج . ولز — من إنشاء حكومة عالمية (المترجم)

وينتج الناس الثروة ، لأنهم يكرهون أن تبدد وتضيع فى الأرض ، ولكنهم يكرهون أن يستمتعوا بها دون غيرهم من الناس ، وهم يعملون لأنهم يكرهون البطالة ، ولكنهم لا يهدفون فى عملهم إلى منفعتهم الشخصيه .

وبهذه الطريقة يقضى على الأنانية والمآرب الذاتية ، فلا تجد سبيلا إلى الظهور ، ولا يرى أثر للصوص والنشالين والخونة المارقين ، فتبقى الأبواب الخارجية مفتحة غير مغلقة . هذا هو الوضع الذى أسميه التماثل الأعظم (١٤٣)(*) .

٣ — أثر كنفوشيوس فى الأمة الصينية

العلماء الكنفوشيون — انتصارهم على القانونيين — عيوب الفلسفة الكنفوشية — جدة مبادئ كنفوشيوس

كان نجاح كنفوشيوس بعد موته ولكنه كان نجاحاً كاملا . لقد كان يضرب فى فلسفته على نغمة سياسية عملية حببتها إلى قلوب الصينيين بعد أن زال بموته كل احتمال لإصراره على تحقيقها .

وإذا كان رجال الأدب فى كل زمان لا يرتضون أن يكونوا أدباء فحسب ، فإن أدباء القرون التى أعقبت موت كنفوشيوس استمسكوا أشد استمساك بمبادئه ، واتخذوها سبيلا إلى السلطان وتسنم المناصب العامة ، وأوجدوا طبقة من العلماء الكنفوشيين أصبحت أقوى طائفة فى الإمبراطورية بأجمعها وانتشرت المدارس فى أنحاء البلاد لتعلم الناس فلسفة كنفوشيوس التى تلقاها الأساتذة عن تلاميذ المعلم الأكبر ، ونماها مِنْشِيس وهذبها آلاف مؤلفة من العلماء على مدى الأيام . وأضحت هذه المدارس المراكز الثقافية والعقلية فى الصين ، فأبقت شعلة الحضارة متقدة خلال القرون الطوال التى تدهورت فيها البلاد من

(*) ترى هل فيما وضعه الفلاسفة المحدثون مثل عليا للحكومات أرقى من هذا المثل (المترجم)

الوجهة السياسية ، كما احتفظ رهبان العصور الوسطى بجذوة الثقافة القديمة وبقليل من النظام الاجتماعى فى العصور المظلمة التى تلت سقوط رومة .

وكانت فى البلاد طائفة أخرى هى طائفة « القانونيين » استطاعت أن تناهض وقتاً ما آراء كنفوشيوس فى عالم السياسية ، وأن تسير الدولة حسب مبادئها هى فى بعض الأحيان .

ومن أقوالهم فى الرد على كنفوشيوس أن نظام الحكم على المثل الذى يضربه الحاكمون ، وعلى الصلاح الذى تنطوى عليه قلوب المحكومين ، يعرّض الدولة لأشد الأخطار ، إذ ليس فى التاريخ أمثلة كثيرة تشهد بنجاح الحكومات التى تسترشد فى أعمالها بهذه المبادئ المثالية . وهم يقولون إن الحكم يجب أن يستند إلى القوانين لا إلى الحكام ، وإن الناس يجب أن يرغموا على إطاعة القوانين حتى تصبح إطاعتها طبيعة ثانية للمجتمع فيطيعوها راضين مختارين . ولم يبلغ الناس من الذكاء مبلغاً يمكنهم من أن يحسنوا حكم أنفسهم ، ولهذا فإنهم لا يصيبون الرخاء إلا تحت حكم جماعة من الأشراف ؛ وحتى التجار أنفسهم ، وإن أثروا ، لا يدل ثراؤهم على أنهم متفوّقون فى ذكائهم ، فهم يسعون وراء مصالحهم الخاصة ، وكثيراً ما يتعارض سعيهم هذا مع مصالح الدولة .

ويقول بعض القانونيين إنه قد يكون من الخير للدولة أن تجعل رءوس الأموال ملكاً عاماً للمجتمع ، وأن تحتكر هى التجارة ، وأن تمنع التلاعب بالأثمان وتركيز الثروة فى أيدى عدد قليل من الأفراد[١٤٤] .

هذه آراء ظهرت ثم اختفت ثم عادت إلى الظهور مرة بعد مرة فى تاريخ الحكومة الصينية .

ولكن فلسفة كنفوشيوس كُتب لها النصر آخر الأمر . وسنرى فيما بعد كيف سعى شى هوانج — دى ، صاحب الحول والطول ، يعاونه رئيس وزراء من

طائفة القانونيين ، للقضاء على نفوذ كنفوشيوس ، فأمر أن يحرق كل ما كان موجوداً وقتئذ من الكتابات الكنفوشية . ولكن تبين مرة أخرى أن قوة البيان أعظم من قوة السنان .

ولم يكن لعداء « الإمبراطور الأول » من نتيجة إلا أن يجعل الكتب التى أراد أن يعدمها كتباً مقدسة قيمة ، وأن يستشهد الناس فى سبيل المحافظة عليها . حتى إذا انقضى عهد شى هوانج — دى ، وعهد أسرته القصير الأجل ، وجلس على العرش إمبراطور أحكم منه ، أخرج الآداب الكنفوشية من مخابئها وعيّن العلماء الكنفوشيين فى مناصب الدولة ، وثبت حكم أسرة هان ، وقوى دعائمه ، بأن أدخل آراء كنفوشيوس وأساليبه الحكيمة فى برامج تعليم الشبان الصينيين وفى الحكومة . وقربت القرابين تكريماً لكنفوشيوس ، وأمر الإمبراطور أن تنقش نصوص الكتب القديمة على الحجارة ، وأصبحت الكنفوشية دين الدولة الرسمى . وناهض الكنفوشية فى بعض الأحيان نفوذُ الدَّوية ، كما طغى عليها أحياناً أخرى سلطان البوذية ، حتى إذا كان عهد أسرة تانج أعادتها إلى مكانتها السابقة وأعلت من شأنها .

ولما جلس على العرش تاى دزونج الأعظم أمر أن يشاد هيكل لكنفوشيوس فى كل مدينة وقرية فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وأن يقرَّب له فيها القوابين العلماء والموظفون . وفى عهد أسرة دزونج نشأت مدرسة قوية للكنفوشية الجديدة أضافت شروحاً وتعليقات لا حصر لها على الكتب الكنفوشية القديمة ، وعملت على نشر فلسفة أستاذها الأكبر وما أضافته إليها من شروح مختلفة فى بلاد الشرق الأقصى ، وبعثت فى اليابان نهضة فلسفية قوية . وظلت مبادئ كنفوشيوس من مبدإ قيام أسرة هان إلى سقوط أسرة منشو — أى ما يقرب من ألفى عام — تسيطر على العقلية الصينية وتصوغها فى قالبها .

والفلسفة الكنفوشية أهم ما يواجه المؤرخ لبلاد الصين ؛ ذلك أن كتابات معلمها الأكبر ظلت جيلا بعد جيل النصوص المقررة فى مدارس الدولة الصينية ، يكاد كل صبى يتخرج فى تلك المدارس يحفظها عن ظهر قلب ، وتغلغلت النزعة المتحفظة القوية التى يمتاز بها الحكيم القديم فى قلوب الصينيين ، وسرت فى دمائهم ، وأكسبت أفراد الأمة الصينية كرامة وعمقاً فى التفكير لا نظير لها فى غير تاريخهم أو فى غير بلادهم ، واستطاعت الصين بفضل هذه الفلسفة أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متآلفة ، وأن تبعث فى نفوس أبنائها إعجاباً شديداً بالعلم والحكمة ، وأن تنشر فى بلادها ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التى اجتاحت بلادها ، وأن تشكل هى الغزاة على صورتها وتطبعهم بطابعها . ولسنا نجد فى غير المسيحية والبوذية(*) ما نجده فى الكنفوشية من جهود جبارة لتحويل ما جبلت عليه الطبيعة البشرية من غلظة ووحشية إلى تأدب ورقة .

ولسنا نجد فى هذه الأيام — كما لم يجد الأقدمون فى الأيام الخالية — دواء يوصف للذين يقاسون الأمرين من جراء الاضطراب الناشئ من التربية التى تعنى بالعقل وتهمل كل ما عداه ، ومن انحطاط مستوى القانون الأخلاقى وتدهوره ، ومن ضعف الأخلاق الفردية والقومية ، لسنا نجد دواء لهذا كله خيراً من تلقين الشباب مبادئ الفلسفة الكنفوشية(**) .

لكن تلك الفلسفة لا تستطيع وحدها أن تكون غذاء كاملا للروح . لقد كانت فلسفة تصلح لأمة تكافح للخروج من غمرات الفوضى والضعف إلى النظام والقوة . ولكنها غل ثقيل يقيد البلد الذى ترغمه المنافسات الدولية على أن ينمو ويتطور .

(*) لقد كان حقاً على المؤلف أن يضم إليهما الإسلام ، وقد كان له من الأثر فى طباع العرب أعظم مما كان للكنفوشية والمسيحية والبوذية من أثر فى الأمم التى انتشرت بينها . (المترجم)

(**) أو مبادئ الإسلام . (المترجم)

ذلك أن قواعد الأدب واللياقة التى شكلت أخلاق الصينيين ونظامهم الاجتماعى أضحت قوة جارفة تسير كل حركة حيوية فى طريق مرسوم لا تتحول عنه ، وكانت الفلسفة الكنفوشية تصطبغ بصبغة جامدة متزمتة ، وتقف فى سبيل الدوافع الطبيعية القوية المحركة للجنس البشرى ، وسمت فضائلها حتى بلغت حد العقم ؛ ولم يكن فيها قط مجال للهو والمجازفة كما لم يكن فيها إلا القليل من الصداقة والحب ، وقد أعانت على تحقير النساء وإذلالهن[١٤٥] ، كما أعان ما فيها من كمال بارد على تجميد الأمة الصينية وجعلها أمة متحفظة لا يضارع عداءها للرقى إلا حبها للسلام .

وليس من حقنا أن نعزو هذا كله إلى كنفوشيوس ، وأن نوجه إليه اللوم من أجله ، إذ ليس فى مقدور إنسان أيا كان شأنه أن يسيطر على تفكير عشرين قرناً من الزمان ، بل كل ما يحق لنا أن نطلبه إلى المفكر أن يضىء لنا بطريقة ما ، وبفضل تفكيره طوال حياته ، سبيل الفهم الصحيح . وقل أن نجد فى العالم من اضطلع بهذا الواجب كما اضطلع به كنفوشيوس . وإذا ما قرأنا تعاليمه ، وتبينا مايجب أن نمحوه من فلسفته بسبب تقدم المعارف فى العالم وتبدل أحواله ، وعرفنا قيمة ما يسديه إلينا من هداية فى عالمنا الحاضر نفسه ، إذا ما فعلنا هذا نسينا من فورنا ما يشوب فلسفته من تفاهة تارة ومن كمال لا تطيقه الطبيعة البشرية تارة أخرى ، واشتركنا مع كونج چى حفيده الصالح التقى فى هذا التسبيح الأعلى الذى كان بداية تأليه كنفوشيوس .

لقد نقل چوچ — فى عقائد يُووشون كأنهما كانا من آبائه ، ونشر نظم وَن و وُو واتخذهما مثلين يحتذيهما وينسج على منوالهما . وكان فى صفاته الروحية قديساً أو ملاكا يتناغم مع السماء . ولكنه لم ينس قط أنه مخلوق من طين وماء . وهو يشبه السماء والأرض فى أنه كان عماداً لكل شىء وعائلا لكل شىء ، يحجب نوره كل شىء ، وتغطى ظلاله كل شىء . وهو أشبه بالفصول الأربعة فى تتابعها وانتظام سيرها ، وأشبه بالشمس والقمر فى تتابع ضيائهما ...

فهو فى شموله واتساع آفاقه كالسماء ، وفى عمق تفكيره ونشاطه كالموة السحيقة والعين الجائشة الفوارة ، إذا رآه الناس وقروه وعظموه ، وإذا تكلم صدقوه ، وإذا فعل أعجبوا بفعله وأحبوه .

ولهذا ذاع صيته فى « المملكة الوسطى » وانتشر بين القبائل الهمجية ، فحيثما وصلت السفائن والمركبات، وحيثما نفذت قوة الإنسان ، وفى كل مكان امتد على سطح الأرض وأظلته السماء وأضاءته الشمس وأناره القمر ، و فى كل بقعة مسها الصقيع وطلها الندى — يجله ويحبه كل من سرى فيه دم الحياة وترددت فى صدره أنفاسها ، حبا صادقاً لا تكلف فيه ولا رياء ؛ ولهذا قيل عنه إنه : « هو والسماء صنوان »[١٤٦] .

الفصل الثالث

اشتراكيون وفوضويون

لقد كانت المائتا عام التى أعقبت عصر كنفوشيوس أعوام جدل شديد وردّة عنيفة ، ذلك أنه لما كشف العلماء عن لذة الفلسفة وبهجتها قام رجال من أمثال هُوِ ادزه ؛ وچونج سون لويانج يتلاعبون بالمنطق ويخترعون القضايا المنطقية المتناقضة التى لا تقل فى تباينها ودقتها عن قضايا زينون[١٤٧] . واحتشد الفلاسفة من جميع أنحاء البلاد فى مدينة لويانج ، كما كانوا يحتشدون فى نفس هذا القرن فى مدينتى بنارس وأثينة ، وكانوا يستمتعون فى عاصمة الصين بحرية القول والتفكير التى جعلت أثينة وقتئذ العاصمة الفكرية لبلاد البحر المتوسط . وغصت عاصمة البلاد بالفلاسفة المسمين تزونج — هنج — كيا أى « فلاسفة الجدل » ، الذين جاءوا من كافة أنحاء البلاد ليعلموا الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم فن إقناع أى إنسان بأى شىء أرادوا إقناعه به[١٤٨] . فجاء إلى لويانج منشيس الذى خلف كنفوشيوس فى منصبه ، كما جاء إليها چَونج — دْزَه أعظم أتباع لو — دْزه ، وشِون — دْزه القائل بأن الإنسان شرير بطبعه ، ومودى نبى الحب العالمى .

١ — مودى العبرى

منطيق قديم — مسيحى — وداعية سلام

قال منشيس عدو مودى « لقد كان يحب الناس جميعاً ، وكان يود لو يستطيع أن يبلى جسمه كله من قمة رأسه إلى أخمص قدمه إذا كان فى هذا خير لبنى الإنسان[١٤٩] ؛ وقد نشأ مودى فى بلدة لو التى نشأ فيها كنفوشيوس ، وذاعت شهرته بعد وفاة الحكيم الأكبر بزمن قليل . وكان يعيب على كنفوشيوس أن تفكيره

خيا لى غير عملى ، وأراد أن يستبدل بهذا التفكير دعوة الناس جميعاً لأن يحب بعضهم بعضاً . وكان من أوائل المناطقة الصينيين ومن شر المجادلين المحاجين فى الصين ؛ وقد عرّف القضية المنطقية تعريفاً غاية فى البساطة فقال :

هذه هى التى أسميها قواعد الاستدلال الثلاث :

أين يجد الإنسان الأساس ؟ ابحث عنه فى دراسة تجارب أحكم الرجال الأقدمين .

كيف يلم الإنسان به إلماما عاما ؟ افحص عما فى تجارب الناس العقلية من حقائق واقعية .

كيف تطبقها ؟ ضعها فى قانون وسياسة حكومية ، وانظر هل تؤدى إلى خير الدولة ورفاهية الشعب أو لا تؤدى إليهما[١٥٠] .

وعلى هذا الأساس جد مودى فى البرهنة على أن الأشباح والأرواح حقائق واقعية ، لأن كثيرين من الناس قد شاهدوها ، وكان من أشد المعارضين لآراء كنفوشيوس المجردة غير المجسمة عن الله ، وكان من القائلين بشخصية الله . وكان يظن كما يظن بسكال أن الدين رهان مربح فى كلتا الحالين : فإذا كان آباؤنا الذين نقرب لهم القرابين يستمعون إلينا فقد عقدنا بهذه القرابين صفقة رابحة ، وإذا كانوا أمواتاً لا حياة لهم ولا يشعرون بما نقرب إليهم فإن القرابين تتيح لنا فرصة الاجتماع بأهلينا وجيرتنا ، لنستمتع جميعاً بما نقدمه للموتى من طعام وشراب[١٥١] .

وبهذه الطريقة عينها يثبت مودى أن الحب الشامل هو الحل الوحيد للمشكلة الاجتماعية ؛ فإذا ما عم الحب العالم أوجد فيه بلا ريب الدولة الفاضلة والسعادة الشاملة التى بها « يحب الناس كلهم بعضهم بعضاً ، ولا يفترس أقوياؤهم ضعفاءهم ، ولا تنهب كثرتهم قلتهم ، ولا يزدرى أغنياؤهم فقراءهم ، ولا يسفه عظماؤهم صغارهم ، ولا يخدع الماكرون منهم السذج »[١٥٢] . والأنانية فى رأيه مصدر كل شر

سواء كان هذا الشر رغبة الطفل فى التملك أو رغبة الإمبراطوريات فى الفتح والاستعمار . ويعجب مودى كيف يُدين الناس أجمعون من يسرق خنزيراً ويعاقبونه أشد العقاب ، أما الذى يغزو مملكة ويغتصبها من أهلها ، فإنه يعد فى أعين أمته بطلا من الأبطال ومثلا أعلى للأجيال المقبلة[١٥٣] . ثم ينتقل مودى من هذه المبادئ السلمية إلى توجيه أشد النقد إلى قيام الدولة حتى لتكاد عقيدته السياسية تقترب كل القرب من الفوضى ، وحتى أزعجت هذه العقيدة ولاة الأمور فى عصره[١٥٤] . ويؤكد لنا كتاب سيرته أن مهندس الدولة فى مملكة چو هَمَّ بغزو دولة سونج ليجرب فى هذا الغزو سُلَّماً جديداً من سلالم الحصار اخترعه فى ذلك الوقت ؛ فما كان من مودى إلا أن أخذ يعظه ويشرح له عقيدة الحب والسلم العالميين حتى أقنعه بالعدول عن رأيه ، وحتى قال له المهندس : « لقد كنت قبل أن ألقاك معتزماً فتح بلاد سونج ، ولكنى بعد أن لقيتك لا أحب أن تكون لى ولو سلمت إلىَّ من غير مقارمة ومن غير أن يكون ثمة سبب حق عادل يحملنى على فتحها » . فأجابه مودى بقوله : « إذا كان الأمر كذلك فكأنى قد أعطيتك الآن دوله سونج . فاستمسك بهذه الخطة العادلة أعطك ملك العالم كله »[١٥٥] .

وكان العلماء من أتباع كنفوشيوس والساسة أتباع لوينج يسخرون من هذه الأفكار السلمية ؛ ولكن مودى رغم هذه السخرية كان له أتباع ، وظلت آراؤه مدى قرنين كاملين عقيدة تدين بها شيعة تدعو إلى السلام ، وقام اثنان من مريديه وهما سونج بنج ، وجونج سون لونج بحملة قوية لنزع السلاح ، وجاهدا فى سبيل هذه الدعوة حق الجهاد[١٥٧] . وعارض هان — أعظم النقاد فى عصره هذه الحركة ، وكان ينظر إليها نظرة فى وسعنا أن نسميها نظرة نِتشية ، وكانت حجته فى معارضته أن الحرب ستظل هى الحكم بين الأمم حتى تنبت للناس بالفعل أجنحة الحب العام .

ولما أصدر شى هوانج — دى أمره الشهير « بإحراق الكتب » ألقيت

فى النار جميع الآداب المودية كما ألقيت فيها جميع الكتب الكنفوشية ؛ وقضى هذا الحريق على الدين الجديد وإن لم يقض على عقيدة المعلم الأكبر وكتاباته .

٢ — يانج — جو ، أنانى

جيرى أبيقورى — الدفاع عن الشر

وكانت عقيدة أخرى ، تختلف عن العقيدة السابقة كل الاختلاف ، قد أخذت تنتشر وتشتد الدعوة إليها بين الصينيين ، فقد قام رجل يدعى يانج — چو لا نعرف عنه شيئاً إلا ما قاله عنه شانثوه[١٥٩] ، وجهر بهذه الدعوة المتناقضة ، وهى أن الحياة ملأى بالآلام وأن اللذة هدفها الأعلى ، وكان ينكر وجود الله ، كما ينكر البعث ، ويقول إن الخلائق ليست إلا دمى لا حول لها ولا طول ، تحركها القوى الطبيعية العمياء التى أوجدتها ، والتى وهبتها أسلافها دون أن يكون لها فى ذلك خيار ، ورسمت لها أخلاقها ، فلا تستطيع أن تتحول عنها أو أن تبدلها بغيرها[١٦٠] .

فأما الحكيم العاقل فيرضى بما قسم له دون أن يشكو أو يتذمر ، ولكنه لا يغتر بشىء من سخافات كنفوشيوس ومودى ، وما يقولانه عن الفضيلة الفطرية والحب العالمى ، والسمعة الطيبة . ومن أقواله أن المبادئ الخلقية شراك ينصبها الماكرون للسذج البسطاء ، وأن الحب العالمى وهم يتوهمه الأطفال الذين لا يعرفون كنه البغضاء العالمية التى هى سنّة الحياة ، وأن حسن الأحدوثة ألعوبة لا يستطيع الحمقى الذين ضحوا من أجلها أن يستمتعوا بعد وفاتهم بها ، وأن الأخيار يقاسون فى الحياة ما يقاسيه الأشرار ، بل إنه ليبدو أن الأشرار أكثر استمتاعاً بالحياة من الأخيار[١٦١] ، وأن أحكم الحكماء الأقدمين ليسوا هم رجال الأخلاق والحاكمين كما يقول كنفوشيوس بل هم عبدة الشهوات ، الذين كان من حظهم

ان استبقوا المشترعين والفلاسفة ، فاستمتعوا بكل لذة دفعتهم إليها غرائزهم . نعم إن الأشرار قد يخلفون وراءهم سمعة غير طيبة ، ولكن ذلك الأمر لا يقلق عظامهم . ثم يدعونا يانج — چو إلى أن نفكر فى مصير الأخيار والأشرار ، فيقول(*) : إن الناس كلهم مجمعون على أن شون ، ويو ، وچو — جونج ، وكنفوشيوس كانوا خير الناس وأحقهم بالإعجاب ، وأن چياه ، وچو ، شرّهم جميعا .

ولكن شون قد اضطر إلى حرث الأرض فى جنوب نهر هو ، وإلى صنع آنية الفخار بجوار بحيرة لاى ، ولم يكن فى وسعه أن يستريح من عناء العمل لحظة قصيرة ، بل إنه لم يكن يستطيع أن يجد شيئاً من الطعام الشهى والملابس المدفئة ، ولم يكن فى قلب أبويه شىء من الحب له ، كما لم يكن يجد من إخوته وأخواته شيئاً من العطف عليه . . . فلما نزل له « ياو » آخر الأمر عن الملك ، كان قد تقدمت به السن ، وانحطت قواه العقلية ؛ وظهر أن ابنه شانج جو إنسان ناقص العقل عديم الكفاية ؛ فلم يجد بدًّا من أن ينزل عن الملك إلى يو . ومات بعدئذ ميتة محزنة . ولم يكن بين البشر كلهم إنسان قضى حياته كلها بائساً منغصا ، كما قضى هو حياته . . .

« وكان يو قد صرف كل جهوده فى فلح الأرض ، وولد له طفل ولكنه لم يستطع أن يربيه ؛ فكان يمر على باب داره ولا يدخلها ، وانحنى جسمه وانضمر وغلظ جلد يديه وقدميه وتحجر . فلما أن نزل له شون آخر الأمر عن العرش عاش فى بيت وطىء حقير ، وإن كان يلبس ميدعة وقلنسوة ظريفتين . ثم مات ميتة محزنة ، ولم يكن بين الآدميين كلهم من عاش معيشة نكدة حزينة كما عاش يو(*) . . .

« وكان كنفوشيوس يفهم أساليب الملوك والحكام الأقدمين ، ويستجيب

(*) فى وسع القارئ أن يعرف شيئاً عن شون ، ويو بالاطلاع على ص ١٧ من هذا الكتاب وعن چياه وو (سن) بالاطلاع على صفحتى ١٧ ، ١٨ .

إلى دعوات أمراء عصره . ثم قطعت الشجرة التى يستظل بها فى سونج ، وأزيلت آثار أقدامه من ويه ، وحل به الضنك فى شانج وچو ، وحوصر فى شان ، وتشى ؛ ... وأذله يانج هو وأهانه ، ومات ميتة محزنة ، ولم يكن بين بنى الإنسان كلهم من عاش عيشة مضطربة صاخبة كما عاش كنفوشيوس .

« ولم يستمتع هؤلاء الحكماء الأربعة بالسرور يوما واحداً من أيام حياتهم ، وذاعت شهرتهم بعد موتهم ذيوعاً سوف يدوم عشرات الآلاف من الأجيال ، ولكن هذه الشهرة هى الشىء الذى لا يختاره قط من يعنى بالحقائق ويهتم بها . هل يحتفلون بذكراهم ؟ هذا ما لا يعرفونه . وهل يكافئونهم على أعمالهم ؟ — وهذا أيضاً لا يعرفونه وليست شهرتهم خيراً لهم مما هى لجذع شجرة أو مَدَرة .

أما (چياه) فقد ورث ثروة طائلة تجمعت مدى قرون طويلة ؛ ونال شرف الجلوس على العرش الملكى ؛ وأوتى من الحكمة ما يكفيه لأن يتحدى كل من هم دونه مقاماً ؛ ومن القوة ما يكفى لأن يزعزع به أركان العالم كله . وكان يستمتع بكل ما تستطيع العين والأذن أن تستمتعا به من ضروب الملذات ؛ ولم يحجم قط عن فعل كل ما سولت له نفسه أن يفعله . ومات ميتة هنيئة ؛ ولم يكن بين الآدميين كلهم من عاش عيشة مترفة فاسدة كما عاش هو وورث چو (شِنْ) ثروة طائلة تجمعت فى مدى قرون طويلة ، ونال شرف الجلوس على العرش الملكى ؛ وكان له من القوة ما يستطيع به أن يفعل كل ما يريد ؛ ... وأباح لنفسه فى قصوره فعل كل ما يشتهيه ، وأطلق لشهواته العنان خلال الليالى الطوال ؛ ولم يكدر صفو سعادته قط بالتفكير فى آداب اللياقة أو العدالة ، حتى قضى نحبه كأبهج ما يقضى الناس نحبهم . ولم يكن فى الآدميين كلهم من كانت حياته داعرة فاجرة كما كانت حياة چو .

« وقد استمتع هذان الرجلان السافلان فى حياتهما بما شاءا من الملذات وأطلقا لشهواتهما العنان ، واشتهرا بعد وفاتهما بأنهما كانا من أشد الناس حمقاً

واستبداداً ، ولكنهما استمتعا باللذة وهى حقيقة لا تستطيع أن تهبها حسن الأحدوثة . فإذا لامهم الناس فإنهم لا يعرفون ، وإذا أثنوا عليهم ظلوا بهذا الثناء جاهلين ، وسمعتهم (السيئة) لا تهمهم أكثر مما تهم جذع شجرة أو مدرة[١٦٢] » .

ألا ما أعظم الفرق بين هذه الفلسفة وبين فلسفة كنفوشيوس ! وهنا أيضاً نظن أن الزمان وهو رجعى كالرجعيين من الآدميين قد أبقى لنا آراء أجل المفكرين الصينيين وأعظمهم ، ثم عدا على الباقين كلهم تقريباً فطواهم فى غمرة الأرواح المنسية . ولعل الزمان محق فى فعله هذا ، ذلك أن الإنسانية نفسها ما كانت لتعمر طويلا لو كان فيها كثيرون ممن يفكرون كما يفكر يان چو . وكل ما نستطيع أن نرد به عليه هو أن المجتمع لا يمكن أن يقوم إذا لم يتعاون الفرد مع زملائه أخذاً وعطاء ؛ وإذا لم يتحملهم ويصبر على أذاهم ، ويتقيد بما فى المجتمع من قيود أخلاقية ، وأن الفرد الكامل العقل لا يمكن أن يوجد فى غير مجتمع ؛ وأن حياتنا نفسها إنما تعتمد على ما فيها من قيود . ومن المؤرخين من يرى فى انتشار هذه الفلسفة الأنانية ، بعض الأسباب التى أدت إلى ما أصاب المجتمع الصينى من انحلال فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد[١٦٣] . فلا عجب والحالة هذه أن يرفع منشيس ، چنسن (Dr. Johnson) زمانه عقيرته بالاحتجاج الشديد وبالتشهير بأبيقورية ينج چو وبمثالية مودى فيقول :

« إن أقوال ينج چو ومودي تملأ العالم ؛ وإذا سمعت الناس يتحدثون وجدتهم قد اعتنقوا آراء هذا أو آراء ذاك . فأما المبدأ الذى يدعو إليه ينج فهو هذا : « كل إنسان وشأنه » — وهو مبدأ لا يعترف بمطالب الملك . أما مبدأ مو فهو هذا : « أحب الناس جميعاً بقدر واحد » — وهو مبدأ لا يعترف بما يحق للأب من حب خاص . ومن لا يعترف بحق الملك ولا بحق الأب فهو فى منزلة الحيوان الأعجم . فإذا لم يوضع لمبادئها حد ، وإذا لم تسد مبادئ

كنفوشيوس، فإنهما سيخدعان الناس بحديثهما المقلوب، ويسدان فى وجوههم طريق الخير والصلاح .

« ولقد أزعجتنى تلك الأشياء وأرمضت قلبى ، فوقفت أدافع عن عقائد الحكماء والأقدمين ، وأعارض ينج ومو ، وأطارد أقوالهما المنحطة ، حتى يتوارى هؤلاء المتحدثون الفاسدون فلا يجرءوا على الظهور . ولن يغير الحكماء من أقوالى هذه إذا ما عادوا إلى الظهور »[١٦٤] .

٣ — منشيس ، مستشار الأمراء

أم نمودجية — فيلسوف بين الملوك — هل الناس أخيار بالسليقة — الضريبة الفردية — منشيس والشيوعيون — باعث الكسب — حق الناس فى أن يثوروا

لقد شاءت الأقدار أن يكون منشيس أنبه الفلاسفة الصينيين ذكراً بعد كنفوشيوس ؛ وما أحفل تاريخ الصين بالفلاسفة .

وكان منشيس من سلالة أسرة مانج العريقة ، وكان اسمه فى بادئ الأمر مانج كو ، ثم صدر مرسوم إمبراطورى بتغييره إلى مانج — دزة أى مانج المعلم أو الفيلسوف . وقد بدل علماء أوربا الذين مرنوا على الأسماء اللاتينية هذا الاسم إلى منشيس كما بدلوا كونج — فو — دزه إلى كنفوشيوس .

ويكاد علمنا بأم منشيس يبلغ من الدقة علمنا به هو نفسه ، ذلك بأن المؤرخين الصينيين قد خلدوا ذكرها وجعلوها نموذجاً للأمهات بما قصوه عنها من القصص الكثيرة الممتعة . فهم يقولون إنها بدلت مسكنها ثلاث مرات من أجله ؛ بدلته أول مرة لأنهما كانا يسكنان بجوار مقبرة فبدأ الصبى يسلك مسلك دافنى الأموات ؛ وبدلته فى المرة الثانية لأنهما كانا يسكنان بجوار مذبح ، ولذلك بدأ الغلام يجيد محاكاة أصوات الحيوانات المذبوحة ؛ ثم بدلته فى المرة الثالثة

لأنهما كانا يسكنان بجوار سوق فشرع الصبى يسلك مسلك التجار ؛ ثم وجدت آخر الأمر داراً بقرب مدرسة فرضيت بها .

وكانت إذا أهمل الغلام دروسه تقطع خيط المُوم ، فإذا سألها عن سبب هذا الإتلاف أجابت بأنها إنما تفعل ما يفعله هو نفسه بإهماله وعدم مثابرته على الدرس والتحصيل . وبذلك أصبح الصبى طالباً مجدًّا ؛ ثم تزوج وقاوم فى نفسه الميل إلى تطليق زوجته ، وافتتح مدرسة لتعليم الفلسفة جمع فيها حوله طائفة من الطلاب ذاع صيتهم فى الآفاق ؛ وبعث إليه الأمراء من كافة الأنحاء يدعونه ليناقشوه فى نظرياته عن الحكم . ولم يشأ فى أول الأمر أن يترك أمه المسنة ، ولكنها أقنعته بالذهاب بخطبة حبيبتها إلى جميع رجال الصين ، ولعل واحداً منهم هو الذى وضع هذه الخطبة :

« ليس من حق المرأة أن تفصل فى أمر بنفسها ، وذلك لأنها تخضع لقاعدة الطاعات الثلاث : فإذا كانت شابة وجب عليها أن تطيع أبويها ، وإذا تزوجت كان عليها أن تطيع زوجها ، وإذا ترملت وجب عليها أن تطيع ولدها . وأنت رجل كامل الرجولة ، وأما الآن عجوز ، فافعل ما توحيه إليك عقيدتك بأنه حق واجب عليك أن تفعله ، وسأفعل أنا ما يوجبه علىّ القانون الذى أأتمر بأمره . فلِم إذن تشغل نفسك بى ؟ »[١٦٥] .

وأجاب منشيس ما طلب إليه لأن اللهفة على التعليم جزء من اللهفة على الحكم ، ترتبط كلتاهما أشد الارتباط بالأخرى . وكان منشيس كفلتير يفضل الملكية المطلقة على الدمقراطية ، وحجته فى هذا أن الدمقراطية تتطلب تعليم جميع الشعب كله إذا أريد نجاح الحكم ، أما النظام الملكى المطلق فكل ما يطلب فيه أن يثقّف الفيلسوف رجلا واحداً — هو الملك — ويعلمه الحكمة لكى ينشئ الدولة الكاملة .

ومن أقواله فى هذا المعنى : « أصلح ما فى عقل الأمير من خطأ ، فإنك إن قوّمت الأمير استقرت شئون الدولة »[١٦٦] . وسافر أولا إلى تشى وحاول أن يقوّم أميرها شوان ، ورضى أن يكون له فيها منصب نخرى ، ولكنه رفض مرتب هذا المنصب . وسرعان ما وجد أن الأمير لا يعنى بالفلسفة ، فغادر تلك الإمارة إلى إمارة تانج الصغيرة ، ووجد فى حاكمها تلميذاً مخلصاً وإن يكن تلميذاً عاجزاً ضعيفاً . فعاد مرة أخرى إلى تشى ، وأثبت أنه قد زاد حكمة وفهماً لحقائق الأمور بأن قبل منصباً ذا مرتب كبير عرضه عليه الأمير شوان . ولما توفيت أمه فى هذه السنين الرغدة دفنها باحتفال عظيم وُجِّه اللوم من أجله إلى تلاميذه ، ولكنه برر لهم هذا العمل بقوله إن كل ما يرمى إليه هو أن يظهر إخلاصه ووفاءه له الدته .

وبعد بضع سنين من ذلك الوقت تورَّط شوان فى حرب للفتح والتملك ، وساءه ما أشار به عليه منشيس من دعوة إلى السلام ، رأى أنها جاءت فى غير أوانها فأقاله من منصبه وسمع منشيس أن أمير سونج يريد أن يحكم حكم الفلاسفة فسافر إلى عاصمته ولكنه وجد أن ما سمعه كان مبالغاً فيه كثيراً ، وأن الأمراء الذين تردد عليهم كانت لهم أعذار كثيرة يبررون بها عدم استقامتهم واتباعهم النصح . فقد قال واحد منهم : « إن لدىّ ناحية من نواحى الضعف ، وهى أنى أحب البطولة والبسالة » . وقال آخر : « إن لدى ناحية من نواحى الضعف وهى أنى أحب الثروة »[١٦٧] .

واضطر منشيس آخر الأمر إلى أن يعتزل الحياة العامة ، وقضى أيام شيخوخته وضعفه فى تعليم الطلاب وتأليف كتاب وصف فيه أحاديثه مع ملوك زمانه . وليس فى وسعنا أن نقول إلى أى حد يمكن مقارنة هذه الأحاديث بأحاديث وولتر سفدج لاندر Walter Savage Lander(*) ؛ ولسنا واثقين من أن هذا

(*) أديب إنجليزى عاش بين سنتى (١٧٧٥ — ١٨٦٤) . (المترجم)

الكتاب من تأليف منشيس نفسه ، أو من تأليف تلاميذه ، أو أنه هو وتلاميذه قد اشتركوا فى وضعه ، أو أنه مدسوس عليه وعليهم[١٦٨] . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن كتاب *منشيس* من أعظم الكتب الفلسفية الصينية القديمة وأجلّها قدراً .

وعقيدته عقيدة دنيوية خالصة لا تقلّ فى هذا عن عقيدة كنفوشيوس ، ولا يكاد يوجد فيها شىء عن المنطق أو فلسفة المعرفة أو ما وراء الطبيعة . لقد ترك الكنفوشيون هذا إلى اتباع لو — دزه ، ووجهوا همهم إلى البحوث الأخلاقية والسياسية . وكان الذى يهم منشيس هو أن يرسم طريقة للحياة الصالحة وتولى خيار الناس مقاليد الحكم . وكان مبدؤه الأساسى أن الناس أخيار بطبيعتهم[١٦٩] ، وأن ليس منشأ المشاكل الاجتماعية طبيعة الناس بل منشؤها فساد الحكومات ؛ ومن ثم يجب أن يصبح الفلاسفة ملوكا ، أو أن يصبح ملوك هذا العالم فلاسفة . انظر إلى ما يقوله فى هذا المعنى :

والآن ، إذا أردتم جلالتكم أن تنشئوا حكومة أعمالها صالحة ، فإن هذا سيبعث فى جميع موظفى مملكتكم الرغبة فى أن يكونوا فى بلاط جلالتكم ، وفى جميع الزراع الرغبة فى أن يفلحوا أرض جلالتكم ، وفى جميع التجار الرغبة فى أن يخزنو بضائعهم فى أسواق جلالتكم ، وفى جميع الرحّالة الأغراب الرغبة فى أن يسافروا فى طرق جلالتكم ، وفى جميع من يشعرون فى أنحاء مملكتكم بأن ظلماً قد وقع عليهم من حكامهم الرغبة فى أن يأتوا ويشكوا إلى جلالتكم . وإذا ما اعترموا أن يفعلوا هذا فمنذا الذى يستطيع أن يقف فى سبيلهم ؟ » .

فقال الملك : « إننى غبى وليس فى وسعى أن أرقى إلى هذا الحد »[١٧٠] .

والحاكم الصالح فى رأيه لا يشن الحرب على البلاد الخارجية بل يشنها على العدو المشترك — وهو الفقر ، لأن الفقر والجهل هما منشأ الجرائم واضطراب النظام ، وعقاب الناس على ما يرتكبونه من الجرائم لأنهم لا تتاح لهم فرص

للعمل شَرَك دنىء ينصب للإيقاع بالناس[١٧١] . وواجب الحكومة أن توفر أسباب الرفاهية لرعاياها ، ولهذا ينبغى لها أن تضع الخطط الاقتصادية الكفيلة بتحقيق هذه الغاية[١٧٢] . فعليها أن تفرض أكثر الضرائب على الأرض نفسها لا على ما تغله أو ما يقام عليها من المنشآت[١٧٣] ، وعليها أن تلغى كل العوائد الجمركية وأن تجعل التعليم عاماً وإجبارياً ، لأن هذا أصلح أساس لنشر الحضاره وتقدمها ؛ « والقوانين الطيبة لا تعادل كسب الناس بالتعليم الطيب »[١٧٤] . « وليس الذى يفرق بين الإنسان والحيوان الأعجم بالشىء الكثير ، ولكن معظم الناس يطرحونه وراء ظهورهم ، ولا يحتفظ به إلا عظماء الرجال »[١٧٥] .

وفى وسعنا أن ندرك قدم المشاكل السياسية التى تواجه عصرنا المستنير ، رموقفنا منها ، وما نضعه لها من الحلول ، إذا عرفنا أن منشيس قد نبذه الأمراء المتطرفون ، وسخر منه الاشتراكيون والشيوعيون فى عصره لمحافظته واستمساكه بالقديم . ولما قال شوشنج جزار الجنوب الهمجى ينادى بإنشاء دكتاتورية الصعاليك ، ويطالب بأن يكون الصناع على رأس الدولة ، « وأن يكون الفعلة هم الحكام » لما قام يدعو إلى هذا ، واعتنق دعوته كثيرون من « المتعلمين »، كما اعتنق المتعلمون هذه الدعوة نفسها فى أيامنا الحاضرة ، وانضووا تحت لوائه ، رفض منشيس هذه الفكرة بازدراء ، وقال « إن الحكومة يجب أن يتولاها المتعلمون[١٧٦] » . ولكنه ندد أيضاً بالفكرة القائلة إن الكسب يجب أن يكون هو الباعث على العمل فى المجتمع الإنسانى ، وعاب على سونج كانج قوله إن الملوك يجب اكتسابهم لقضية السلام بإقناعهم — فى لغة هذه الأيام — بأن الحرب عمل غير مربح . وفى هذا يقول:

« إن غرضك شريف ، ولكن منطقك غير سليم . ذلك بأنك إذا اتخذت الكسب أساساً لحجتك واستطعت أن تقنع بها ملوك تشين وتشى ، وأعجب هؤلاء الملوك بفكرة الكسب فأمروا بوقف حركات جيوشهم ، فإن كل المتصلين

بهؤلاء الجيوش سيفرحون بوقف (القتال) ، وسيجدون أعظم السرور فى (السعى وراء الكسب) . فنرى الوزراء يخدمون الملك جرياً وراء الكسب الذى حبب إليهم ، والأبناء يخدمون آباءهم ، والإخوة الصغار يخدمون الكبار من إخوتهم ، لهذا السبب عينه ، ونتيجة هذا أن الملك والوزراء ، والأب والابن ، والأخ الأكبر والأصغر ينسون كلهم بواعث الخير والصلاح ، ويوجهون أعمالهم كلها نحو الكسب المحبب إليهم العزيز عليهم . ولم يوجد قط (مجتمع) كهذا إلا كان مآله الخراب »[١٧٧] .

وكان يعترف بحق الشعوب فى الثورة وينادى بهذا المبدأ فى حضرة الملوك . وكان يندد بالحرب ويراها جريمة ، ولشد ما صدم عقائد الأبطال فى أيامه حين كتب يقول : « من الناس من يقول إنى بارع فى تنظيم الجند ، وإنى ماهر فى إدارة المعارك . وأولئك هم كبار المجرمين »[١٧٨] .

وقال فى موضع آخر : « ليس ثمة حرب عادلة »[١٧٩] . وكان يندد بترف حاشية الملوك ، ويوجه أشد اللوم للملك الذى يطعم كلابه وخنازيره ويترك الناس يموتون جوعاً[١٨٠] . ولما قال أحد الملوك إنه لا يستطيع منع المجاعة أجابه منشيس بأنه ينبغى له أن يعتزل الملك[١٨١] . وكان يقول لتلاميذه : « إن الناس أهم عنصر (من عناصر الأمة) ؛ ... وإن الملك أقل هذه العناصر شأناً »[١٨٢] . وإن من حق الناس أن يخلعوا حكامهم ، بل إن من حقهم أن يقتلوهم فى بعض الأحايين .

وسأل الملك شوان عن الوزراء العظام ... فأجابه منشيس : « إذا كان الملك يرتكب أغلاطاً شنيعة وجب عليهم أن يعارضوه ، فإذا لم يستمع إليهم بعد أن يفعلوا هذا مرة بعد مرة ، وجب عليهم أن يخلعوه ... » .

ثم واصل منشيس حديثه قائلا : « إذا فرض أن القاضى الأكبر الذى يحكم فى الجرائم قد عجز عن السيطرة على الموظفين (الخاضعين له) فماذا تفعل به ؟ » .

فأجابه الملك بقوله : « أفصله من منصبه » . ثم قال له منشيس : « وإذا لم يكن فى داخل حدود (مملكتك) الأربعة حكومة صالحة فماذا تفعل ؟ » فتلفت الملك يمنة ويسرة وأخذ يتحدث عن أمور أخرى...

وسأله الملك شوان : « وهل من أجل ذلك أمر تانج بنفى چياه وضرب لملك « وُ» حاكم چو (سن) ؟ فأجاب منشيس : « هكذا تقول السجلات »

وسأله الملك : « وهل يحق للوزير أن يقتل مليكه ؟ » فأجابه منشيس : « إن الذى يخرج على ما أودع فيه من (طبيعة خيرة) يسمى لصا ؛ والذى يخرج على قواعد الاستقامة يسمى وغداً ؛ وليس كل من اللص والوغد فى عرفنا إلا شخصاً لا قيمة له ؛ ولقد سمعت بتقطيع أوصال الشخص چو، ولكنى لم أسمع بقتل ملك »(١٨٣).

تلك عقيدة ما أجرأها ، ولقد كانت عاملا كبيراً فى تقرير المبدإ الذى يقره ملوك الصين وأهلها ، وهو أن الحاكم الذى يستثير عداوة الشعب يفقِد « حقه الإلهى » فى الحكم ، ومن حق الشعب أن يخلعه . فلا عجب والحالة هذه إذا غضب هونج وو ، مؤسس أسرة منج . حين قرأ هذا الحديث الذى دار بين منشيس والملك شوان ، وأمر أن يمحى اسم منشيس من مكانه فى هيكل كنفوشيوس ، وكانت لوحة تذكارية قد وضعت له فى هذا المعبد بأمر ملكى فى عام ١٠٨٤ ، ولكن اللوحة أعيدت إلى مكانها ولما يمض عام واحد على إزالتها ، وظل منشيس من ذلك الوقت إلى ثورة عام ١٩١١ يعد بطلا من أبطال الصين وثانى اثنين ذاع صيتهما فى جميع عهود تاريخها ، وكان لها أعظم الأثر فى فلسفتها الصحيحة . وإليه وإلى چوشى(*) يرجع الفضل فى احتفاظ كنفوشيوس بزعامته الفكرية فى الصين أكثر من ألفى عام .

(*) انظر بحث الفلسفة فى الفصل الأول من الباب الخامس عشر .

٤ — شوه — دزه ، واقعى

النفس البشرية أمارة بالسوء — ضرورة القوانين

كان فى فلسفة منشيس كثير من نقط الضعف ، وكان يسر معاصريه أن يشهروا بهذه النقط بأعظم مايستطيعون من قوة . أحق أن الناس أخيار بطبيعتهم وأنهم لا ينحدرون إلى الشر إلا إذا فسدت النظم التى يعيشون فى كنفها ؟ أم الصحيح أن الطبيعة البشرية هى السبب فى شرور المجتمع ؟ لقد كان هذان الرأيان المتعارضان مثاراً لجدل عنيف ظل قائما آلاف السنين بين المصلحين والمحافظين . فهل تستطيع التربية أن تنقص الجرائم ، وتزيد الفضائل ، وتأخذ بيد الناس إلى المثل العليا ، وتمكنهم من إقامة الدولة الفاضلة المثالية ؟ وهل يصلح الفلاسفة لحكم الدول أو أن فلسفتهم لا تؤدى إلا إلى زيادة ما يحاولون علاجه من فوضى واضطراب ؟

وكان أشد الناس نقداً لمنشيس وأصعبهم مراساً أحد الموظفين العموميين ، ويلوح أنه توفى فى عام ٢٣٥ ق . م وهو فى سن السبعين . ذلك هو شون — دزه الذى سبقت الإشارة إليه فى هذا الباب وكما كان منشيس يعتقد أن الناس جميعهم أخيار بطبيعتهم ، كان شون — دزه يرى أنهم جميعاً أشرار بفطرتهم ، وحتى شون ويو كانا متوحشين حين ولدا(١٨٤) . وقد وصلت إلينا قطعة من كتابات شون — دزه يبدو فيها أشبه الناس بالفيلسوف الإنجليزى هبز Hobbes إذ يقول :

« النفس البشرية أمارة بالسوء ، وما تعمله من خير متكلف مصطنع(*) . فهى قد غرس فيها من ساعة مولدها حب الكسب ؛ « اذ كانت أعمال الإنسان

(*) أى أن ما فى الإنسان من خير غير أصيل فيه بل أكسبته إياه تربيته والنظم التى يعيش فى كنفها .

إنما تقوم على هذا الحب فإن هذا يؤدى إلى انتشار المنازعات والسرقات. وليس إنكار الذات والاستسلام للغير من (طبيعة) الإنسان، بل إن من طبيعته التحاسد والتباغض، ولما كانت أعمال الناس لا بد أن تتفق مع طباعهم فإنهم لا يصدر عنهم إلا العنف والأذى، ولا نرى فيهم إخلاصاً أو وفاء.

ومن طبيعة الإنسان أيضاً إشباع الأذن والعين، وهذا يؤدى إلى حب الأصوات العذبة والمناظر الجميلة. ولما كانت أعمال الناس لا بد أن تتفق مع هذه وتلك، كان لا بد أن توجد الدعارة وسوء النظام، وأن تنعدم الاستقامة والاحتشام ومظاهرهما المختلفة المنسقة. ومن هذا يتضح أن السير وفق الطبيعة البشرية وإطاعة أحاسيسها، يؤديان حتماً إلى الخصام واللصوصية، وإلى مخالفة الواجبات التى تتفق مع الوضع الذى وجد فيه كل إنسان، وإلى الخلط بين كل المراتب والميزات حتى تعم الهمجية. ولهذا كان لابد من قيام سلطان المعلمين وسلطان الشرائع، والاهتداء بقواعد الاستقامة والاحتشام التى ينشأ عنها إنكار الذات، والخضوع للغير، ومراعاة قواعد السلوك المنظمة، مما يؤدى إلى قيام الدولة، ذات الحكومة الصالحة .. وقد أدرك الملوك الأقدمون الحكماء ماطبعت عليه النفس البشرية من شر، فوضعوا قواعد الاستقامة والآداب، وسنوا النظم والقوانين ليقوموا طبائع الناس ومشاعرهم ويصلحوهم .. حتى يسلكوا جميعاً سبيل الحكم الصالح الذى يتفق مع العقل»[١٨٥].

ووصل شون — دزه فى بحوثه إلى ماوصل إليه ترجنيف وهو أن الطبيعة ليست معبداً يضم الصالحين، بل هى مصنع يجتمع فيه الصالح والطالح؛ وهى تقدم المادة الغفل، التى يعمل فيها الذكاء فيصوغها ويشكلها. وكان يظن أن أولئك الناس الأشرار بطبعهم، إذا دربوا على الخير، قد يصلحون، بل إن فى وسعهم إذا أريد لهم ذلك أن يكونوا قديسين[١٨٦].

ولما كان شوِن — دزه شاعراً وحكيماً معاً فقد نظم فلسفة فرانسس بيكن فى هذا الشعر الركيك :

إنكم تمجدون الطبيعة وتتفكرون فيها ،
فلِم لا تسخرونها وتنظمونها ؟
إنكم تطيعون الطبيعة وتسبحون بحمدها ،
فلِم لا تسيطرون على أساليبها وتستخدمونها ؟
إنكم تنظرون إلى الفصول نظرة الإجلال وتنتظرونها ،
فلِم لا تستجيبون إليها ببذل النشاط فى أوانه ؟
إنكم تعتمدون على الأشياء الخارجة عنكم وتعجبون بها ،
فلِم لا تكشفون عن كفاياتكم ؟
وتوجهونها الوجهة الصالحة ؟[١٨٧] .

٥ — جونج — دزه ، مثالى

الرجوع إلى الطبيعة — المجتمع اللاحكومى — طريقة الطبيعة — حدود الذهن — تطور الإنسان — مُشكِّل الأرزار — أثر الفلسفة الصينية فى أوربا

على أن « الرجوع إلى الطبيعة » لم يكن من السهل أن يقاوم بهذه الطريقة ؛ بل قام فى ذلك العصر من يدعو إليه كما قام من يدعو إليه فى كل العصور . ومن المصادفات التى يمكننا أن نسميها مصادفات طبيعية أن كان الداعى إلى هذا الرجوع أبلغ كتاب عصره وأفصحهم لساناً . لقد كان چونج — دزه مولعاً بالطبيعة يرى أنها سيدته التى تتحفى به على الدوام مهما كان بغيه أو كانت سنه ، ومن أجل هذا فاضت فلسفته بأحاسيس روسو الشعرية مضافاً إليها مُلَحُ ڤلتير الهجائية . ومنذا الذى يستطيع أن يتصور أن منشيس ينسى نفسه بحيث يصف أحد الناس

بأن له : « جدرة(*) كإبريق من الفخار »[١٨٨] ، وقصارى القول أن چونج أديب وفيلسوف معاً .

ولد هذا الفيلسوف فى ولاية سونج ، وتقلد وقتاً ما منصباً صغيراً فى مدينة خِيُآن . وزار قصور الملوك التى زارها منشيس ، ولكن كلا الرجلين لا يذكر فيما بقى لنا من كتاباته اسم الآخر . ولعل كليهما كان يحب صاحبه كما يحب المعاصرون بعضهم بعضاً . ويروى عنه أنه رفض منصباً كبيراً مرتين ، ولما عرض عليه دوق — وبه رياسة الوزارة رد على رسول الملك رداً مقتضباً يدل على ما يتراءى للكاتب من أحلام فقال : « اذهب من هنا لساعتك ولا تدنسنى بوجودك ، لخير لى أن أسلى نفسى وأمتعها فى حفرة قذرة من أن أخضع للقواعد فى بلاط ملك من الملوك »[١٨٩] .

وبينما كان يصطاد السمك فى يوم من الايام إذ أقبل عليه رجلان من كبار الموظفين يحملان إليه رسالة من ملك خو يقول فيها : أريد أن أحملك عبء جميع ملكى » ، فأجابه چونج ، كما يقول هو نفسه ، دون أن يرفع نظره عن صيده .

« لقد سمعت أن فى خو صدفة سلحفاة كأنها روح من الأرواح ، وقد ماتت سلحفاتها منذ ثلاثة آلاف عام ، وأن الملك يحتفظ بهذه الصدفة فى معبد أسلافه ، وأنه يضعها فى سلة مغطاة بالقماش . فهل كان خيراً للسلحفاة أن تموت وتترك صدفتها تعظم على هذا النحو ؟ أو هل كان خيراً لها أن تظل حية تجر ذيلها من خلفها فى الوحل ؟ » فأجاب الموظفان الكبيران : « لقد كان خيراً لها أن تعيش وتجر ذيلها من خلفها فى الوحل » ؛ فقال لهما چونج : « اذهبا فى سبيلكما ، وسأظل أجر ذيلى ورائى فى الوحل »[١٩٠] .

(*) الجدرة تضخم الغدة الدرقية وهذا اللفظ من الألفاظ التى أقرها مجمع اللغة العربية . (المترجم)

وكأن احترامه للحكومات يعدل احترام سلفه الروحى يو — دزه ، فكان يسره أن يشير إلى عدد مايتصف به الملوك والحكام من صفات اللصوص[١٩١] . ويقول إنه إذا أدى الإهمال بأحد الفلاسفة الحقيقيين ، إلى أن يرى نفسه يتولى شئون إحدى الدول ، فإن الخطة المثلى التى يجب عليه أن يسلكها هى ألا يفعل شيئاً ، وأن يترك الناس أحراراً يضعون مايشاءون من نظم حكمهم الذاتى . « لقد سمعت عن ترك العالم وشأنه ، والكف عن التدخل فى أمره ، ولم أسمع عن حكم العالم »[١٩٢] ولم يكن ثمة حكومات فى العصر الذهبى الذى سبق عهد أقدم الملوك .

ولم يكن يو وشون خليقين بما حبتهما الصين وحباها كنفوشيوس من تشريف وتعظيم ، بل كانا خليقين بأن يتهما بالقضاء على ما كانت الإنسانية تستمتع به من سعادة بدائية قبل إقامة نظم الحكم فى العالم : « لقد كان الناس فى عهد الفضيلة الكاملة يعيشون مجتمعين كما يعيش الطير والحيوان ، ولا يفترقون عنهما فى شىء ، تتألف منهم ومن جميع المخلوقات أسرة واحدة . وأنى لهم أن يعرفوا فيما بينهم ما يميز العظماء فيهم من غير العظماء ؟ »[١٩٣] .

ويرى چوانج أن من واجب الرجل العاقل أن يولى الادبار حين يشاهد اولى معالم الحكومة ، وأن يعيش أبعد مايستطيع عن الفلاسفة والملوك ، ينشد السلام والسكون فى الغابات (وذلك موضوع جد آلاف من المصورين الصينيين فى رسمه) وأن يترك كيانه كله يتبع الدَّو المقدس — قانون حياة الطبيعة ومجراها الذى لا تدركه العقول — من غير أن يعوقه عن ذلك تفكير أو تدبير ، لا يتكلم إلا قليلا لأن الكلام يضل بقدر ما يهدى ، ولأن الدو — طريقة الطبيعة وجوهرها — لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ أو صياغته فى أفكار ، بل كل ما فى الأمر أنه يمكن الشعور به فى الدم . وهو يرفض أن يستعين بالآلات ويؤثر عليها الطرق القديمة المجهدة التى كان يجرى عليها بسطاء الرجال ، وذلك لأن الآلات تؤدى إلى التعقيد والفتنة وعدم المساواة بين الناس ؛ وليس فى مقدور أى إنسان

أن يعيش بين الآلات ويستمتع بالسلام[١٩٤]. وهو يأبى أن يكون له مِلْك خاص ولا يجد للذهب نفعاً له فى حياته ؛ ويفعل ما فعله تَيْمُن[*] الأثينى فيترك الذهب مخبوءا فى جوف التلال واللآلئ فى أعماق البحار . والذى يمتاز به من غيره أنه يفهم أن الأشياء جميعها تخص خزانة واحدة ، وأن الموت والحياة يجب أن ينظر إليهما نظرة واحدة »[١٩٥][**] ، — على أنهما نغمتان من أنغام الطبيعة المتناسقة ، أو موجتان فى بحر واحد .

وكان الأساس الذى يقوم عليه تفكير چونج عين الأساس الذى يقوم عليه تفكير لو — دزه شبه الأسطورى . وكان تفكير لو — دزه هذا يبدو لچونج أعمق كثيراً من تفكير كنفوشيوس ، وكان فى جوهره النظرة الصوفية لوحدة الكون غير الشخصية الشبيهة شبهاً عجيباً بنظرة بوذا وأتباع أپانيشاد ، حتى ليكاد المرء يعتقد أن فلسفة ما وراء الطبيعة الهندية قد تسربت إلى الصين قبل أربعمائة عام من ظهور البوذية فيها حسبما يسجله المؤرخون . نعم إن چونج فيلسوف لا أدرى ، جبرى ، من القائلين بالحتمية ومن المتشائمين ، ولكن هذا لا يمنعه أن يكون قديساً متشككا ، ورجلا أسكرته الدِّرِّية ؛ وهو يعبر عن تشككه هذا تعبيراً يميزه من غيره من أمثاله فى القصة الآتية :

قال شبه الظل يوماً ما للظل[†] « إنك تارة تتحرك وتارة تثبت فى مكانك ، تارة تجلس وتارة تقوم ، فلم هذا التذبذب فى القصد وعدم الاستقرار فيه ؟ » فأجابه الظل بقوله : « إن شيئاً أعتمد عليه هو الذى يجعلنى أفعل ما أفعله ،

(*) شخصية معروفة من شخصيات شيكسبير فى إحدى مسرحياته المسماة بهذا الاسم . اقرأ وصف هذه الشخصية فى كتابنا « قصص من شيكسبير » . (المترجم)

(**) ما أشبه هذا بقول حكيم المعرة :

وشبيه صوت النعى إذا قي[illegible]س بصوت البشير فى كل ناد (المترجم)

(†) شبه الظل فى الخسوف جوا جزء النصف المضاء بين الظل وبين الضوء . ولعل چونج يقصد بالظل فى قصته جسم الإنسان الذى يستنطقه العقل المستنير بعض الاستنارة . (المترجم)

ولكن هذا الشيء نفسه يعتمد على شيء آخر يضطره إلى أن يفعل هو الآخر ما يفعله ... وأنى لى أن أعرف لم أفعل هذا الشيء ولا أفعل ذاك ؟ ... إن الجسم إذا بلى بلى العقل معه ؛ ألا ينبغى لنا أن نقول إن هذه حال يرثى لها كثيراً ؟ ... إن ما يحدث فى الأشياء كلها من تغيير — وجود ثم عدم — يسير (بلا انقطاع) ؛ ولكننا لا نعرف منذا الذى يُسيِّر هذه الحركة فى طريقها على الدوام : وأنى لنا أن نعرف متى يبدأ الواحد منا ؟ وأنى لنا أن نعرف متى ينتهى ؟ إن كل ما فى وسعنا أن ننتظر هذه البداية والنهاية ، لا أكثر من هذا ولا أقل »[١٩٦] .

ويظن جونج أن هذه المشاكل إنما تنشأ من قصور تفكيرنا أكثر مما تنشأ من طبيعة الأشياء نفسها . فلا عجب والحالة هذه أن تنتهى الجهود التى تبذلها عقولنا الحبيسة لفهم العالم الأكبر الذى تكون هى جزيئات صغيرة منه ، لا عجب أن تنتهى هذه الجهود بالتناقضات والقوانين المتعارضة . ولقد كانت هذه المحاولة التى ترمى إلى تفسير الكل باصطلاحات الجزء إسرافاً فى التطاول والاعتداد بالنفس ، لا نجيزها إلا لما فيها من تسلية وفكاهة ؛ لأن الفكاهة ، كالفلسفة ، هى النظر إلى الكل بمصطلحات الجزء ، وكلاهما لا يمكن وجوده بغير الآخر .

ويقول جونج — دزه إن العقل لا يفيد فى فهم الأشياء الغائية أو أى شيء عميق كنمو الطفل مثلا . « وليس الجدل إلا دليلا على عدم وضوح الرؤيا » ، وإذا أراد الإنسان أن يفهم الدَّو « فعليه أن يكبت علمه أشد الكبت »[١٩٧] إن من واجبنا أن ننسى نظرياتنا ونشعر بالحقائق ؛ وليس التعليم بنافع لنا فى هذا الفهم ، وأهم شيء فى هذا أن نلتقى بأنفسنا فى غمرات الطبيعة .

وما هو الدَّو الذى يراه الصوفى المحظوظ النادر الوجود ؟ إنه شيء لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ ؛ وكل ما نستطيع أن نصفه به فى عبارات ضعيفة ملأى

بالمتناقضات هو قولنا إنه وحدة الأشياء كلها وانسيابها الهادئ من نشأتها إلى كمالها ، والقانون الذى يسيطر على هذا الانسياب .

« ولقد كان موجوداً ثابتاً منذ الأزل قبل أن توجد السماء والأرض »(١٩٨)

وفى هذه الوحدة العالمية تتلاشى كل المتناقضات ، وتزول كل الفروق ، وتتلاقى كل الأشياء المتعارضة ؛ وليس فيه ولا فى نظرته إلى الأشياء طيب أو خبيث ، ولا أبيض أو أسود ، ولا جميل أو قبيح(*) ، ولا عظيم أو حقير . وإذا عرف الإنسان أن العالم صغير كحبة الخردل ، وأن طرف الشعرة لا يقل فى الارتفاع عن قمة الجبل ، أمكن أن يقال عنه إنه يعرف النسبة بين الأشياء »(٢٠٠) . وفى هذا الكل المبهم الغامض لا يدوم شكل من الأشكال ، وليس فيه صورة فذة لا تنتقل إلى صورة أخرى فى دورة التطور التى تسير على مهل :

« إن بذور (الأشياء) دقيقة ولا حصر لها . وهى تكون على سطح الماء نسيجاً غشائيا . فإذا وصلت إلى حيث تلتقى الأرض والمياه اجتمعت وكونت (الحزاز الذى يكون) كساء الضفادع والحيوانات الصوفية . فإذا دبت فيها الحياة على التلال والمرتفعات صارت هى الطلح ؛ فإذا غذاها السماء أضحت نبات عش الغراب . ومن جذور عش الغراب ينشأ الدود ومن أوراقه ينشأ الفراش ثم يستحيل الفراش حشرة — وتعيش تحت موقد . ثم تتخذ الحشرة صورة اليرقة ، وبعد ألف عام تصبح اليرقة طائراً . . . ثم تتحد الينجشى مع خيزرانة فينشأ من اتحادهما الحدج — تنج ؛ ومنه ينشأ النمر ، ومن النمر ينشأ الحصان ، ومن الحصان ينشأ الإنسان . فالإنسان جزء من آلة (التطور) العظيمة ، التى تخرج منها جميع الأشياء ، والتى تدخل فيها بعد موتها »(٢٠١) .

لا ننكر أن هذه الأقوال ليس فيها من الوضوح ما فى نظرية دارون

(*) « كانت شى — شيه امرأة جميلة ، ولكن لما انعكست ملامحها فى الماء فرت منها الأسماك خائفة »(١٩٩) .

ولكنها أيًّا ما كان غموضها نظرية تطور .

« وفى هذه الدورة اللانهائية قد يستحيل الإنسان إلى صور أخرى غير صورته ؛ ذلك أن صورته الحالية ليست إلا مرحلة عابرة من مراحل الانتقال ، وقد لا تكون فى سجل الخلود حقيقة إلا فى ظاهر أمرها — أو جزءا من الفوارق الخداعة التى تُغَشِّى بها مايا جميع الكائنات[٢٠١] .

« رأيت أنا چونج — ذه مرة فى منامى أنى فراشة ترفرف بجناحيها فى هذا المكان وذاك ، أنى فراشة حقاً من جميع الوجوه . ولم أكن أدرك شيئاً أكثر من تتبعى لخيالاتى التى تشعرنى بأنى فراشة . أما ذاتيتى الإنسانية فلم أكن أدركها قط . ثم استيقظت على حين غفلة وهأنذا منطرح على الأرض رجلا كما كنت ، ولست أعرف الآن هل كنت فى ذلك الوقت رجلا يحلم بأنه فراشة ، أو أننى الآن فراشة تحلم بأنها رجل[٢٠٢] » .

وليس الموت فى رأيه إلا تغيراً فى الصورة ، وقد يكون تغيراً من حال إلى حال أحسن منها ؛ أو أنه كما قال إبسن Ibsen فيما بعد الصائغ الذى يصهرنا مرة أخرى فى أتون التغير والتطور :

« مرض تزه — لاى حتى أصبح طريح الفراش يلفظ آخر أنفاسه ، ووقف من حوله زوجه وأبناؤه يبكون ، وذهب لى يسأل عنه فلما أقبل عليهم قال لهم : « اسكتوا وتنحوا عن الطريق ! ولا تقلقوه فى حركة تبدله » ... ثم اتكأ على الباب وتحدث إلى (الرجل المحتضر) . فقال له تزه — لاى : « إن صلة الإنسان بالين واليانج أقوى من صلته بأبويه . فإذا كانا يتعجلان موتى وأعصى أنا أمرهما ، فإنى أعد حينئذ عاقاً شرساً . هنالك « كتلة (الطبيعة) العظمى » التى تجعلنى أحمل هذا الجسم ، وأكافح فى هذه الحياة ، وتهد قواى فى سن الشيخوخة ، ثم أستريح بالموت . وإذن فذلك الذى يعنى بمولدى هو الذى يعنى بوفاتى . فها هو ذا صاهر يصب المعادن . فإذا كان المعدن الذى يتأرجح

أثناء صبه يناديه : « يجب أن أكون مويه (سيفاً قديماً مشهوراً) فإن الصاهر العظيم يعد هذا المعدن معدناً خبيثاً بلا ريب . وذلك أيضاً شأن الإنسان ، فإذا ما أصر على أن يكون إنساناً ولا شيء غير إنسان ، لأنه في يوم من الأيام قد تشكل في صورة الإنسان ، إذا فعل هذا فإن من بيده تصوير الأشياء وتشكيلها سيعده بلا ريب مخلوقاً خبيثاً . وإذن فلننظر إلى السماء والأرض نظرتنا إلى مصهر عظيم ، ولننظر إلى مبدل الأشياء نظرتنا إلى صاهر عظيم ؛ فهل لا نكون في مكاننا الحق أينما ذهبنا ؟ إن السكون هو نومنا والهدوء هو يقظتنا »(٢٠٣) .

ولما تصرم أجل چونج نفسه أعد أتباعه له جنازة فخمة ، ولكنه نهاهم عن ذلك وقال لهم : « أليس موكب لجنازتي معداً إذا كانت السماء والأرض تابوتي وغطائي ، والشمس والقمر والنجوم شعائري ، والخلائق كلها تشيعني إلى قبري؟ » ولما عارض أتباعه في هذا ، وقالوا إنه إن لم يدفن أكلت طيور الهواء الجارحة لحمه ، رد عليهم چونج بقوله : « سأكون فوق الأرض طعاماً للحِدَأ ، وسأكون تحتها طعاماً لصراصير الطين والنمل ؛ فلم تحرمون بعضها طعامها لتقدموه للبعض الآخر ؟ »(٢٠٤)

وإذا كنا قد أطنبنا في الكلام على فلاسفة الصين الأقدمين فإن بعض السبب في هذا يرجع إلى أن مشكلات الحياة الإنسانية المعقدة العسيرة الحل ومصائرها تستغرق تفكير العقل الباحث ، وأن بعضه الآخر يرجع إلى أن علم فلاسفة الصين الأقدمين هو أثمن تراث خلفته تلك البلاد للعالم . ومن الدلائل القوية على قدر هذه الفلسفة أن ليبنتز Leibntiz صاحب العقل العالمي الواسع ، قام من زمن بعيد (في عام ١٦٩٧) ، بعد أن درس الفلسفة الصينية ، ينادي بضرورة تطعيم فلسفة الشرق والغرب كلتيهما بالأخرى ، وعبر عن رأيه هذا بألفاظ ستظل محتفظة بقيمتها في كل عصر ولكل جيل :

« إن الأحوال السائدة بيننا وما استشرى في الأرض من فساد طويل

العهد تكاد كلها تحملنى على الاعتقاد بأن الواجب أن يرسل إلينا مبشرون صينيون ليعلمونا أساليب الأديان القومية وأهدافها ... ذلك بأنى أعتقد أنه لو عين رجل حكيم قاضيا ... ليحكم أى الشعوب أفضل أخلاقا من سواها ، لما تردد فى الحكم للصين بالأسبقية فى هذا المضمار »[٢٠٥] . وقد طلب ليبنتز إلى بطرس الأكبر أن ينشئ طريقاً برياً للصين ، ودعا إلى إنشاء جمعيات فى مسكو وبرلين « لارتياد الصين وتبادل المدنيتين الصينية والأوربية »[٢٠٦] . وفى عام ١٧٢١ بذل كرستيان ولف Christian Wolff (*) مجهوداً آخر فى هذه السبيل ، وذلك بما ألقاه من محاضرات فى جامعة هال Halle « عن فلسفة الصينيين العلمية » ، واتهمه ولاة الأمور بالإلحاد وفصلوه من منصبه ؛ فلما أن جلس فردرك الأكبر على عرش بروسيا دعاه إليها ورد إليه اعتباره[٢٠٧] .

وجاء عصر الاستنارة فى فرنسا فعنى بالفلسفة الصينية ، كما عنى بتنسيق الحدائق الفرنسية على نمط الحدائق الصينية ، وتزيين المنازل بالنقوش والأدوات الصينية . ويلوح أن الفلاسفة الاقتصاديين الطبيعيين (الفزيوقراطيين) قد تأثروا بآراء لو — دزه ، وچونج — دزه فى نظرية « التخلى » Laissez faire وترك الأمور تجرى فى مجراها ، وهى النظريه الاقتصادية التى يقولون بها ويدعون إليها[٢٠٨] . ولقد كان روسو يتحدث فى بعض الأحيان كما يتحدث المعلم القديم (**) وإنا لنتبين صلة وثيقة بينه وبين لو — دزه وجونج ، ولو أن كنفوشيوس

(*) فيلسوف وعالم رياضى ألمانى (١٦٧٩ — ١٧٥٤) .

(**) مثال ذلك : « أن الترف والفجور والإسترقاق كانت على الدوام سوط العذاب الذى يصب على الجهود الطموحة التى بذلناها لنخرج من الجهل السعيد الذى وضعتنا فيه الحكمة الأزلية » . ويرى الأستاذ إلبرت توماس Elbert Thomas (عضو مجلس الشيوخ الأمريكى الآن) الذى نقل هذه العبارة من كتاب « أحاديث عن تقدم العلوم والفنون » (Discourses on the Progress of Sciences and Arts) أن لفظ « الحكمة الأزلية » خير ترجمة « للدوية الأزلية » التى وردت على لسان لو — دزه[٢٠٩] .

ومنشيس قد وهبا ملكة الفكاهة لكانت الصلة وثيقة بينهما وبين فلتير . وفى هذا يقول فلتير نفسه : « لقد قرأت كتب كنفوشيوس بعناية ، واقتبست فقرات منها ، ولم أجد بها إلا أنقى المبادئ الخلقية التى لا تشوبها أقل شائبة من الشعوذة »[٢١٠] . وقد كتب جيته فى عام ١٧٧٠ يقول إنه اعتزم أن يقرأ كتب الصين الفلسفية القديمة ، ولما دوت مدافع نصف العالم فى ليبزج Leipzig بعد ثلاثة وأربعين عاماً من ذلك الوقت لم يلتفت إليها الحكيم الشيخ لأنه كان منهمكا فى دراسة الآداب الصينية[٢١١] .

ولعل هذه المقدمة القصيرة غير العميقة تحفز القارئ إلى متابعة دراسة الفلاسفة الصينيين أنفسهم كما درسهم جيته وفلتير وتولستوى .